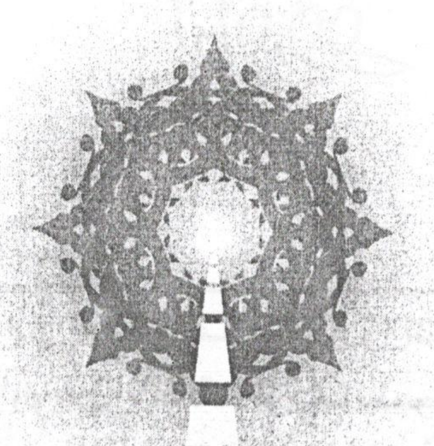
قال رسول الله ﷺ: ﴿الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة﴾ متفق عليه

٦

Kjo është rruga

هذا الطريق



تأليف

أبي المنذر خليل بن إبراهيم أمين



الطبعة الأولي

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



دار المقتطف للنشر و التوزيع
الرياض المملكة العربية السعودية
الرياض- خميس مشيط
جوال :٠٥٧٧٥١١٠٠
تليفاكس: ٠٧/٢٢٢١١٠٠
ص.ب ٣٨٠٩٨٠ - الرياض ١١٣٤٥
E.M:ALMOKTATAF@HOTMAIL.COM

استهلالٌ

الْحَمدُ للهِ وَحْدَهُ، والصَّلاة والسَّلام عَلى مَنْ لاَ نبيَّ بعده، وبعد:

فأكْتُبُ هَذِهِ الكلمات ويمْلَؤني التفاؤل، ويَحْدُوني الأمل، وكُلِي ثِقَةٌ بِأنَّ الفرجَ قريبٌ..

فمَا طالَ ليلٌ حالِكٌ إلاَّ وأعْقَبَهُ ضَوء الفجر

وَمَا اشتدَّ ضِيقٌ إلاَّ وَمَعهُ السِّعةُ

وَما تَعاقبَ بلاءٌ إلاَّ وقرينَهُ العافية

وَمَا عَظُمت شِدَةٌ إلاَّ وبيدها اليُسر

فَثِقوا، وأَبْشِرُوا، وأَمِّلوا، بأنَّ ﴿ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح: ٥ - ٦) وَلَنْ يغلب عُسر يُسْرين.

فالله - تباركَ وتعالى - بمنهِ وكرمِهِ ولطفهِ يُهيئُ في أحلكِ الساعاتِ رجالاً عِظَاماً يُقَدِّرُون المَسْؤولية، ويَحْمِلُونَ الأمانة، أُولئكَ هُمْ أصحاب الأعمال

الناجحة، والحياة السعيدة، الذين تَعِزُّ بِهِمْ أُسَرِهِمْ، وَتَسْمُو بِهِمْ أوطانهم.

وَإِذَا كانَ هُنَاكَ مِنَ الرِّجال مَنْ يَعْدِلُ ألف رَجُلٍ، فَهُنَاكَ - عَلىَ النَّقيض - مَنْ هُوَ فِي مِيزانِ الرِّجالِ لاَ يَعْدِلُ جَنَاح بَعُوضةٍ، والنَّاسُ كَمَا قالَ النبيُّ - صلَّىَ الله عليهِ وَسَلَّمَ -: «كَالإبلِ المائة لاَ تكادُ تَجِدُ فِيهَا راحلةً»[1].

كُلُّ مَا أُرِيدُهُ مِنْكَ وَأَنْتَ تَقْرأُ كَلِمات هَذِهِ الرِّسَالة أَنْ تَنْسَى أَنَّكَ تَقْرأُ كِتاباً بُغْيَتُكَ أَنْ تَنْتَهِيَ مِنْهُ ثُمَّ تَضَعَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ، وَلكِنْ أُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تَقِف مَعَ نَفْسِكَ، وَتَنْظُرَ فِي ذَاتِكَ، وَتُفَتِشَ فِي أَعْمَاقِكَ، أُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تَقْرَأَ لِتَعْمَلَ، وَتَعْمَلَ لِتَتَحولَ، فَهَذِهِ (الجُرعات النَّفْسية) الَّتِي بَيْنَ يَدَيْكَ تَأْخُذُ بِيَدِكَ لِتَضَعَكَ فِي مَصَافِّ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ.

خليل بن إبراهيم

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري رقم (٦١٣٣) ٥/ ٢٣٨٣، وصحيح مسلم رقم (٢٥٤٧) ٤/ ١٩٧

مُقدمةٌ

الحمدُ لله، والصلاة والسلام علىَ خير خلق الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فأستبيحُك عُذْراً - قارئي الكريم - في أنْ أبُوح لكَ بشيئين اثنين:

أولهما: أنِّي أطلتُ بِكَ النجعة، وأبعدت بك الرحلة في هذه السلسلة؛ وما كانَ ذَلِكَ مِنِّي إلاَّ لأمرٍ انطوتْ عليه نفسي.

الثاني: أنَّ ما انطوت عليه خبيئةُ نفسي هو أنْ أصلُ بك إلى «هذا الطريق»؛ طريق الله المُوصِلُ إلىَ سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

ففي القلب شعثٌ لا يلُمه إلاَّ الإقبالُ علىَ الله، ووحشةٌ لاَ يزيلها إلاَّ الأُنس بالله، وحُزنٌ لا يُسَكِّنهُ إلاَّ الاجتماع عليه والفرار منه إليه، ونيران حسرةٍ لا يُطْفئها

إلاَّ الرضىَ بأمرهِ ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك، وفاقةٌ لا يسُدها إلاَّ محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أُعطِيَ العبد الدنيا وما فيها لم تُسَد تلك الفاقة أبداً إلاَّ بالرجوع إلى الله.

فليْسَ أمامكَ - أخي - إلاَّ أنْ تطوي نفسك علىَ عزيمةٍ مضّاءٍ حذَّاءٍ، لتبدأ - وبقوةٍ - رحلة المسير في «هذا الطريق» الذي سار فيه أمامك أئمة الهدى السابقين والهُداة المهديين مِنَ الرعيل الأول، ولا يزال يَقْفو آثارهم أحفادٌ بررة، اهتدوا بنورهم واتبعوا سبيلهم، وستظل هذه الطريق عامرة ببقية منهم - إن شاء الله - إلى أن يأذن الله بِطَيِّ بُساط الأرض ومن عليها.

وقدْ بذلت وُسعي - فيما أعلم - من أجل أن أُبَيِّنَ لك معالم الطريق واضحةً بارزةً لا غموض فيها ولا تشويش؛ كى لا تَزِلَ بك القدم فتحِيدَ عنها؛ فتهويَ - عِياذاً بالله - إلى مفازة من الضياع والهلكة، وأن أُظْهِرَ لك بِجلاءٍ ما

نُصِبَ عليها من القواطع - الحسيّة والمعنوية - لتتوقاها وتتخطاها، فإنَّ هذه القواطع تأتيك مُتبرجة في تمامِ زينتها، مُرتدية رداء البراءةِ وخُلوص النية، مُتزرة بإزارٍ من المهارة والحَذَق، تُخيِّلُ عليك تخييل السحرة، فتأخذ بِلُبِّ الحليم، وتذهلُ بِعقلِ العاقل - والمعصوم من عصَمَه الله تعالى - فكُن منها أبداً على حذرٍ؛ فإنها تدب دبيباً خفيفاً لطيفاً فترى حسناً ما ليس بالحسن، حتى «تحسب الشحم فيمن شحمه ورم».

ومن نافلةِ القول أنْ أُخبرك - أخي الحبيب - أنَّ هذا الجُزء الماثل بين يديك هو محضُ نقلٍ من فارس ميدانه، وهو الإمام ابن قيم الجوزية عليه رحمة الله ورضوانه، فإنَّ هذا مما سَيَبِينُ لك من الورقة الأولى، فما كان لِيَ فيه من عملٍ إلاَّ الجمع والترتيب وضم النظير إلى نظيره من مؤلفات هذا العَلَم الهُمام - عليه شآبيب الرضوان -؛ ولِذا استغنيت عن عزو فقراته فجميعه معزوٌ إلىَ صاحبِهِ؛

وكذلك سولت لي نفسي .

وبنهاية هذا الجزء أكون قد أتيتُ على تمام هذه السلسلة، فلا يسعني في ختامها إلاَّ أنْ أرفع أكُف الضراعة إلى الله - تبارك وتعالى - أن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم، صواباً علىَ سنة نبيه الأمين، وأن يرشد بها السائل، ويدلُ بها الحائر، ويهدي بها الضآل، هو ولي ذلك والقادر عليه، وصلىَ الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الوجهة في السفر

قالَ الإمامُ ابن القيم - رَحِمَهُ الله -: العبدُ من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافرٌ فيها إلىَ ربهِ، ومُدة سفرهِ هي عُمره الذي كُتب له، فالعمر هو مُدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه، ثُمَّ قد جُعلت الأيام والليالي مراحل سفره: فكُل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر، فالكيْس الفَطِن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه، فيهتم بقطعها سالماً غانماً فإذا قطعها جَعَل الأخرى نصب عينيه، ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه، ويمتد أمله، ويحصر بالتسويف والوعد والتأخر والمُطل، بل يعد عمره تلك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته، فإنَّه إذا تيَقن قِصَرها وسرعة انقضائها هانَ عليه العمل، فطوْعت له نفسه الانقياد إلى

التزود، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك، فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عُمره كلها، فيُحْمَدُ سعيه ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته، فإذا طلع صبح الآخرة وانقشع ظلام الدنيا فحينئذ يُحمد سَراه ويَنجاب عنه كراه، فما أحسن ما يستقبل يومه وقد لاح صباحه واستبان فلاحه.

ثُمَّ الناس في قطع هذه المراحل قسمان: فقسم قطعوها مُسَافرين فيها إلىَ دار الشقاء، فكُلما قطعوا منها مرحلة قربوا من تلك الدار وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته فقطعوا تلك المراحل بِمَسَاخط الربِّ ومعاداة رسله وأوليائه ودينه والسعي في إطفاء نوره وإبطال دعوته وإقامة دعوة غيرها، فهؤلاء جُعِلتْ أيامهم يسافرون فيها إلىَ الدار التي خُلِقُوا لها واستُعملوا بها، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم تسوقهم إلى منازلهم سوْقا كما قال – تعالى –: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ

تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ (مريم: ٨٣) أي: تزعجهم إلىَ المعاصي والكفر إزعاجاً وتسوقهم سوقاً، والقسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام وهم أيضاً على أقسام ثلاثة (وسنقف على تفصيلهم لاحقاً إن شاء الله).

أخصر الطُرُق

وأخْصَر الطُرق في الوصول إلى الله - تبارك وتعالى - هو لزوم طريق الاستقامة، قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: الطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه مُوصلا لمن سلكه قال الله - تعالى -: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ (الأنعام: ١٥٣)، فوحَدَّ سبيله؛ لأَنَّه في نفسه واحد لا تعَدُدَ فيه، وجمع السُبل المخالفة؛ لأنها كثيرة متعددة، كما ثبت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خطَّ خطًا ثم قال: «وهذا سبيل الله». ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن يساره ثم قال: «هذه سُبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: «﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾»[(١)].

---

(١) صحيح ابن حبان رقم (٧) ١/ ١٨١، سنن الدارمي رقم (٢٠٢) ١/ ٧٨، ومسند الإمام أحمد رقم (٤١٤٢) من حديث ابن مسعود.

والمقصود أنَّ الطريق إلىَ الله واحدٌ، فإنَّه الحق المبين والحق واحد، مرجعه إلى واحد، وأمَّا الباطل والضلال فلا ينحصر، بَلْ كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل، فالباطل متعدد، وطُرقه متعددة. وأمَّا ما يقع في كلام بعض العلماء أنَّ الطريق إلى الله متعددة متنوعة جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها، رحمةً منه وفضلاً؛ فهو صحيح لا يُنافي ما ذكرناه من وحدة الطريق وإيضاحه أن الطريق هي واحدة جامعة لكل ما يُرضي الله، وما يُرضيه متعدد متنوع فجميع ما يرضيه طريق واحد، وَمَرَاضِيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، وكلها طرق مرضاته، فهذه التي جعلها الله - بِرحمتِهِ وحكمتِهِ - كثيرة متنوعة جدا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلاَّ واحد بعد واحد

ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق؛ ليسلك كل امرئ إلى ربه طريقا يقتضيها استعداده وقوته وقبوله ومِنْ هنا يُعْلَمُ تنوع الشرائع واختلافها مع رجوعها كُلِّها إلىَ دينٍ واحد مع وحدة المعبود ودينه، ومنه الحديث المشهور: «الأنبياء أولاد علات دينهم واحد»[١]، فأولاد الواحد يكون الأب واحداً؛ والأمهات متعددة، فَشَبَّه دين الأنبياء بالأب الواحد، وشرائعهم بالأمهات المتعددة، فإنّها وإنْ تعددت فمرجِعها إلىَ أبٍ واحد كلها.

---

(١) متفق عليه، البخاري رقم (٣٢٥٨) ٣/ ١٢٧٠، وصحيح مسلم رقم (٢٣٦٥) ٤/ ١٨٣٧.

الطريق المُوصلة إلى الاستقامة :

وفي ذِكْرِ طريق يُوصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال وهي شيئان: أحدهما: حراسة الخواطر وحِفْظِهَا، والحذر من إهمالها والاسترسال معها، فإنَّ أصل الفساد كله من قبلها يجيء؛ لأنَّها هي بذر الشيطان، والنفس في أرض القلب، فإذا تمكنَّ بذرها تعاهدها الشيطان بِسَقْيِهِ مرةً بعد أخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها بِسَقْيِهِ حتى تكون عزائم، ثم لا يزالُ بها حتى تُثْمِرُ الأعمال، ولا ريب أنَّ دفعَ الخواطر أيْسَر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزاً أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المُفَرِط إذا لم يدفعها وهي خاطرٌ ضعيفٌ، كمن تهاون بشرارةٍ من نارٍ وقعت في حطب يابس فلمَّا تمكنت منه عجز عن إطفائها .

فإن قلت: فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟

قلتُ : أسبابٌ عدةٌ : (أحدها) : العلمُ الجازم باطلاع الرب - سبحانه - ونظره إلى قلبك وعِلمه بتفصيل خواطرك ، (الثاني) : حياؤك منه (الثالث) : إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خُلِقَ لمعرفته ومحبته ، (الرابع) : خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر ، (الخامس) : إيثارك له أن يُسَاكِنَ قلبك غير محبته ، (السادس) : خشيتُكَ أن تتولد تلك الخواطر ويَسْتَعِرُ شرارها ، فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله ، فتذهب به جملةً وأنت لا تشعر ، (السابع) : أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحَبِّ الذي يُلْقَىَ للطائر ليُصَادَ به ، فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة في فَخٍّ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر ، (الثامن) : أنْ تعلم أنَّ تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلاً ، بل هي ضدها من كل وجه ، وما اجتمعتا في قلبٍ إلاَّ وغَلَبَ أحدهما صاحبه وأخرجه

واستَوْطَنَ مكانه، فمَا الظنُ بقلبٍ غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها واستَوْطَنَتْ مكانها؟ لكن لَوْ كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحسَّ بِمُصَابِهِ...، (التاسع): أنْ يعلم أنَّ تلك الخواطر بَحْرٌ من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غَرِقَ فيه وتاه في ظلماته فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلا، فقلب تملكه الخواطر بعِيد من الفلاح مُعَذَبٌ مشغول بما لا يفيد، (العاشر): أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا تُثْمِرُ لصاحبها إلاَّ الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانها وأفسدت عليه رعيته وألقته في الأسر الطويل.

أنفع ما للعبد في حصول الاستقامة:

وصِدْقُ التأهب للقاءِ الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حُصول استقامته، فإنَّ من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن

الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات، وأخبت قلبه إلى الله، وعَكَفَتْ هِمَتَهُ علىَ الله وعلىَ محبتهِ وإيثار مرضاته، واستحدَثت همة أخرى وعلوماً أُخَرْ وَوُلِدَ ولادةً أخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أن كان في بطن أمه فيُولد قلبه ولادةً حقيقية كما وُلِدَ جسمه حقيقةً، وكما كان بطن أمه حجاباً لجسمه عن هذه الدار فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسه بارزاً إلى الدار الآخرة؛ كخروج جسمه عن بطن أمه بارزاً إلىَ هذه الدار، وهذا معنىَ ما يُذْكَرُ عن المسيح أنَّه قال: «يا بني إسرائيل، إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين»، ولمَّا كانَ أكثر الناس لم يُولدوا هذه الولادة الثانية ولا تصوروها - فضلاً عن أن يُصَدِّقُوا بها - فيقول القائل: «كيف يُولد الرجل الكبير أو كيف يُولد القلب؟»، لم يكن لهم إليها هِمَّةٌ ولا عزيمةٌ، إذْ كيف يعزم

علىَ الشيء من لا يعرفه ولا يُصدقه؟ ولكن إذا كُشِفَ حجاب الغفلة عن القلب صدَّق بذلك وعَلِمَ أنَّه لم يُولَدُ قلبه بعد .

والمقصود أنَّ صِدْقَ التأهب لِلِّقاء هو مُفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية ومقامات السالكين إلىَ الله ومنَازل السائرين إليهِ، من: اليقظة، والتوبة، والإنابة، والمحبة، والرجاء، والخشية، والتفويض، والتسليم، وسائر أعمال القلوب والجوارح، فمُفتاح ذلك كُله صدق التأهب والاستعداد لِلِقَاءِ الله، والمُفتاح بيد الفَتَّاح العليم لا إله غيره ولا رب سواه، والناس قسمان: عِلْية، وسَفَلة:

فالعلية: منْ عرف الطريق إلى ربه وسلكها قاصداً الوصول إليه، وهذا هو الكريم على ربه، والسفلة: من لم يعرف الطريق إلى ربه ولم يتعرفها فهذا هو اللئيم الذي قال الله فيه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ (الحج: ١٨).

الهمة في السير

والسائرُ علىَ الطريق تَعْرِضُ له عوارض منها :

* غفلةٌ عن مرادهِ، تضعف إرادته .

* وشهوة تُعارض إرادته فتصده عن مرادهِ .

* ورجوع عن مراده، وسلوة عنه .

هذه ثلاثة أمور تَعْرِضُ لِصَادق الإرادة : سببٌ يعرض له ينقُض عزمه وإرادته، ووحشةٌ تعرض له في طريق طلبه، ولا سيما عند تَفَرُدِهِ، وفتنة تخرج عليه، تقصد قطع الطريق عليه .

فإذا قويت الهمة وتمكن الحادي من القلب اندفعت عنه هذه الآفات؛ لأنَّ إرادته إذا قويت وجَدَّ به المسير لم ينقضها سببٌ من أسباب التخلف، والنقض : هو الرجوع عن إرادته، والعدول عن جهة سفره...

والعارض: هو المخالف، كالشيء الذي يعترضك في طريقك فيجيء في عرضها، ومن أقوى هذه العوارض: عارض وحشة التفرد. فلا يُلْتَفَتُ إليه، كما قال بعض الصادقين: «انفرادك في طريق طلبك دليلٌ علىَ صدق الطلب»، وقال آخر: «لا تستوحش في طريقك من قلة السالكين ولا تغتر بكثرة الهالكين».

وأمَّا الفتنة التي تقطع عليه الطريق: فهي الواردات التي تَرِدُ على القلوب، تمنعها من مُطَالعة الحق وقصده، وهذه العزائم لا تَصْحُ إلا لِمَنْ أشرقَ على قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات، وتجلَّت عليه معانيها، وكافح قلبه حقيقة اليقين بها.

تنوع الوسَائل المُوصلة

وتتنوع الوسائل المُوصلة إلى الله والدار الآخرة، فَمِنَ الناسِ من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم، قد وَفَّرَ عليه زمانه مُبْتغياً به وجه الله فلا يزال كذلك عاكِفاً على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله، ويُفتَح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه، فيُرجَى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ١٠٠)، وقد حُكِيَ عن جماعةٍ كثيرةٍ ممَّن أدركه الأجل وهو حريصٌ، طالبٌ للقرآن أنَّه رؤيَ بعدَ موتهِ وأخبَر أنَّه في تكميل مطلوبه وأنه يتعلم في البرزخ، فإنَّ العبدَ يموتُ على ما عاش عليه، ومِنَ الناس من يكون سيد عمله الذِكْر وقد جعله زاده لمعادِهِ ورأس ماله لمآله، فمتى فَتَر عنه أو قصَّرَ رأى أنَّه قد غُبِنَ وخَسِرَ، ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصَّر في وردهِ منها أو مضىَ

عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته، وضاق صدره، ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي كقضاء الحاجات وتفريج الكُرُبَات وإغاثة اللَهفات وأنواع الصَدَقات، قد فُتِحَ له في هذا وسلكَ منه طريقاً إلى ربهِ، ومن النَّاس من يكون طريقه الصوم فهو متىَ أفطر تغير قلبه وساءَت حاله، ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهي الغالب على أوقاته وهي أعظم أوراده، ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد فَتَحَ الله له فيهِ ونفذَ منه إلىَ ربهِ، ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتمار، ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمَّة ودوام المراقبة ومُرَاعاة الخواطر وحفظ الأوقات أنْ تذهبَ ضائعة، ومنهم جامع المنفذ، السالك إلى الله في كُلِّ وادٍ، الواصل إليهِ مِنْ كل طريق، فهو جعلَ وظائف عبوديته قبلة قلبه ونُصْب عينه يَؤُمُّها أين كانتْ، ويسير معها حيث سارتْ، قد ضربَ مع كل فريقٍ بسهمٍ،

فأين كانت العبودية وجدته هناك، وإنْ كان عِلْمٌ وجدته معَ أهلهِ، أوْ جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذِكْرٍ وجدته في الذاكرين، أو إحسانٍ ونفعٍ وجدته في زُمْرَةِ المُحسنين، أو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زُمرة المحبين المنيبين، يَدِينُ بدين العبودية أنَّىَ استقلَّت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أُريد أن أُنَفذ أوامر ربي، حيث كانت، وأين كانت، جالبة ما جلبت، مُقتضية ما اقتضت، جمعتني أو فرقتني، ليس لي مرادٌ إلاَّ تنفيذها والقيام بأدائها، مُراقباً له فيها، عاكِفاً عليه بالروح والقلب والبدن، قدْ سَلَّمْتُ إليه المبيع مُنْتَظِراً منه تسليم الثمن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (التوبة: ١١١)، فهذا العبد السَالِكُ إلىَ ربهِ النافذ إليه حقيقة، ومعنى النفوذ إليهِ أنْ يتصل به قلبه ويعلق المحب التام المحبة بمحبوبه فيسْلو به عن جميع المطالب سواه، فلا يبقى في قلبه إلا محبة الله

وأمره وطلب التقرب إليه .

فإذا سلك العبد على هذا الطريق عَطَفَ عليه ربه فقرَّبه واصطفاه، وأخَذَ بقلبهِ إليهِ وتولاه في جميعِ أمُوره في معاشه ودينه، وتولى تربيته أحسن وأبلغ مما يُرَبِّيَ الوالد الشفيق ولده، فإنَّه - سُبحانه - القَيوم المُقيم لِكُلِ شيءٍ مِنَ المخلوقات طائعها وعاصيها. فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه وآثره على ما سواه، ورضي به من دون الناس حبيباً ورباً، ووكيلاً وناصراً ومُعيناً وهادياً؟!، فلو كُشِفَ الغِطَاءُ عن ألطافه وبِرِّهِ وصُنعهِ له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم لذاب قلبه محبة له وشوقا إليه ويقع شكراً له، ولكن حَجَبَ القلوب عن مُشَاهدة ذلك إخلادها إلىَ عالم الشهوات والتعلق بالأسباب، فَصَدَّتْ عن كمال نعيمها، وذلك تقدير العزيز العليم، وإلاَّ فأيُّ قلبٍ يذوق حلاوة معرفة الله ومحبته ثُمَّ يركنُ إلىَ غيره ويسكن إلى ما سواه؟ هذا ما لا يكون

أبداً ، ومَنْ ذاقَ شيئاً مِنْ ذلك وعَرِفَ طريقاً مُوصلةً إلى الله ثم تركها وأقبل على إراداته وراحاته وشهواتهِ ولذاته وقع في آثار المَعَاطب وأُودع قلبه سجون المضايق، وعُذِّبَ في حياتهِ عذاباً لم يُعذب به أحدٌ من العالمين، فحياته عجزٌ وغمٌ وحزنٌ، وموته كدر وحسرة، ومعاده أسف وندامة، قد فَرُطَ عليه أمره وشُتِّتَ عليه شمله، وأُحضِرَ نفسه الغموم والأحزان، فلا لذة الجاهلين ولا راحة العارفين، يستغيث فلا يُغاث ويشتكي فلا يشكى، فقد ترحلت أفراحه وسروره مدبرة، وأقبلت الآمه وأحزانه وحسراته، فقد أُبْدِلَ بِأُنسهِ وحشةً، وَبِعِزِّهِ ذُلاً، وبغناه فقراً، وبجمعيته تشتيتاً، وأبعدوه فلم يظفر بقربهم، وأبدلوه مكان الأنس إيحاشاً، ذلك بأنَّه عرف طريقه إلىَ الله ثُمَّ تركها ناكباً عنها.

عصرة بداية الطريق

وهي عصرةٌ لا بد منها في بداية السير إلى الله والدار الآخرة وهي ضغطة من هم أوغم، أو ضيق أوحزن، و يشعر التائب بها في أول توبته، والتوبة تكون على قدر هذه العصرة، فكُلَّمَا كانت أقوى وأشد كانت الفرحة واللذة أكْمَلُ وأتم، ولذلك أسباب عديدة:

* منها: أنَّ هذه العصرة والقبض دليلٌ على حياة قلبه وقوة استعداده، ولو كان قلبه ميتاً واستعداده ضعيفاً لم يحصل له ذلك ...
* أيضاً: فإنَّ الشيطان لص الإيمان، واللص إنَّمَا يقصد المكان المَعْمُور، وأمَّا المكان الخراب الذي لا يرجو أن يظفر منه بشيء فلا يقصده، فإذا قويت المعارضات؛ الشيطان والعصرة؛ دلَّ على أن في قلبه من الخير ما يشتد حرص الشيطان علىَ نَزْعِهِ منه .

* وأيضا: فإنَّ قوة المُعارض والمُضَاد تَدُلُ علىَ قوة معارضته وضده، ومثل هذا إمَّا أن يكونَ رأساً في الخير، أو رأساً في الشر، فإنَّ النفوس الأبية القوية إنْ كانت خَيّرةً رَأَسَتْ في الخير، وإنْ كانت شريرةً رَأَسَتْ في الشرِ.

* وأيضاً: فإنَّه بِحَسَبِ موافَقَتِهِ لِهَذا العارض وصبره عليه يُثْمِرُ له ذلك من اليقين والثبات والعزم ما يُوجب لزيادة انشراحه وطمأنينته.

* وأيضاً: فإنَّه كُلَّمَا عَظُمَ المطلوب كَثُرَتْ العوارض والموانع دونه، وهذه سنة الله في الخلق، فانظر إلىَ الجنة وَعِظَمِهَا وإلى الموانع والقواطع التي حالت دونها حتى أوجبت أن ذهب من كل ألفٍ رجلٌ واحدٌ إليها، وانظر إلىَ محبةِ الله، والانقطاع إليه، والإنابة إليه، والتبتل إليه وحده، والأنس به، واتخاذه ولياً ووكيلاً وكافياً وحسيباً. هل يكتسب العبد شيئا أشرف

منه؟ وانظر إلى القواطع والموانع الحائلة دونه .

والمقصود أنَّ هذا الأمر الحاصل بالتوبة لمَّا كانَ مِنْ أجلِّ الأمور وأعظمها نُصِبَتْ عليه المُعارضات والمِحَنْ؛ ليتميز الصادق من الكاذب وتقع الفتنة ويحصل الابتلاء ويتميز من يصلح ممن لا يصلح كما قال - تعالى -: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ (العنكبوت: ١ - ٣) وقال سبحانه: ﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ ﴾ (هود: ٧)، ولكن إذا صبر علىَ هذهِ العصرة قليلاً أفْضَتْ بهِ إلىَ رياضِ الأُنس وجنات الانشراح، وإن لم يصبر لها انقلب على وجهه، والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه .

أقسام السالكون على الطريق

وهم ثلاثة أقسام: ظالمٌ لنفسهِ، ومقتصد، وسابقٌ بالخيراتِ بإذن الله. قال - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (فاطر: ٣٢) فهؤلاء كلهم مُستعدون للسير مُوقِنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه، فالظالم لنفسه مُقَصِرٌ في الزاد غير آخذٍ منه ما يُبَلِغه المَنْزِل لا في قدره ولا في صفته، بل مُفَرِطٌ في زادِهِ الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو مُتَزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غِبَّ أذاه إذا وصل المنزل بِحَسب ما تزود من تلك المؤذي الضار، والمقتصد اقتصر من الزاد على ما يُبَلغه، ولم يشد مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالمٌ غانمٌ لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب

الفاخرة، والسابق بالخيرات هَمُّه في تحصيل الأرباح وشَدِّ أحمال التجارات لِعلمِهِ بمقدار المربح الحاصل، فيرى خُسراناً أن يَدخِرَ شيئاً مِمَّا بيدهِ ولا يتجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم، فهو كرَجُلٍ قدْ عَلِمَ أنَّ أمامَهُ بلدةً الدرهمُ يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يُهيئُ بهِ تجارةً إلىَ ذَلِكَ البلد لفعل، فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن الله يرى خسرانا بيّنا أنْ يمر عليه وقت في غير متجر، ونذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو.

القسم الأول: الظالم لنفسه:

فأمَّا الظالم لنفسه: فإنّه إذا استقبل مرحلة يومهِ وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحرَّكت جوارحه طالبةً لها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة،

فَمَرَّةً يأخذ بالرُخصة ومرَّة بالعزيمة، ومرة يُقْدِمُ على
الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة، فهذا حال
الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله
واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب، فمرحلة هذا
مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما، فإذا
وَرَدَ القيامة مَيّزَ ربحه من خُسرانه، وحَصَّلَ ربحه وحده
وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله
من وراء ذلك لا يُعدم منه فضله وعدله.

القسم الثاني: المقتصد:

وأمَّا المُقتصدون: فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم
يزيدوا عليها ولا نقصوا منها، فلا حصلوا علىَ أرباح
التُجار ولا بَخَسُوا الحق الذي عليهم، فإذا استقبل
أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة
في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثُمَّ ينصرف منها
إلى مُبَاحاتِهِ ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها، مشتغلاً

بها ، قائماً بأعيانها ، مؤدياً واجب الرب فيها ، غير مُتفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه ، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادرَ إليها ، فإذا أكمَلها انصرف إلى حالهِ الأول، فهو كَذَلِكَ سائر يومه فإذا جاءَ الليل إلى حين النوم يأخذ الواجب ويقوم بحقه، وكذلك الزكاة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم .

القسم الثالث: السابقون بالخيرات :

وأما السابقون بالخيرات: فهم نوعان: أبرار، ومقربون. وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين، وهم المقتصدون والأبرار والمقربون. وأمَّا الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمن عند الإطلاق وإنْ كان مآله إلى مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه .

هدايةُ الطريق

ولابُدَ للسائرِ من هادٍ يهديه الطريق وإلاَّ ضلَّ وضل سيره، وهو علىَ نوعين: اعتصامٌ بالله، واعتصامٌ بحبل الله، قال الله - تعالى -: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وقال عز وجل: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ (الحج: ٧٨).

والاعتصامُ افتعالٌ من العِصْمَة: وهو التمسك بما يعصِمُكَ، ويمنعُك من المحذور والخوف، فالعصمة: الحِمْيَةُ، والاعتصام: الاحتماء، ومنه سُميت القلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها، ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاةَ إلاَّ لِمَنْ تَمَسَكَ بهاتين العصمتين.

فأمَّا الاعتصام بحبله: فإنَّهُ يعصم من الضلالة، والاعتصام به: يَعْصِمُ من الهلكة، فإنَّ السائر إلىَ الله

كالسائر علىَ طريق نحو مقصده فهو محتاج إلىَ هداية الطريق والسلامة فيها. فلا يصل إلى مقصده إلاَّ بعد حُصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها .

فالاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلئم بها في طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى، فقال ابن عباس: «تمسكوا بدين الله»، وقال ابن مسعود: «هو الجماعة»، وقال: «عليكم بالجماعة فإنَّه حبل الله الذي أمر به، وإنَّ ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة»، وقال مجاهد و عطاء: «بعهد الله»، وقال قتادة، و السدي، وكثير من أهل التفسير: «هو القرآن»، قال ابن مسعود -

رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : «إنَّ هذا القرآن هو حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه»[١]، وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في القرآن: «هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لاَ يزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الألسن، ولا يخلق علىَ كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء».

وقال مقاتل: «بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى»، وفي الموطأ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «إنَّ الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن

---

(١) روي موقوفا ومرفوعا وهذا لفظ الموقوف انظر المعجم الكبير للطبراني رقم (٨٦٤٦) ٩/ ١٣٠.

تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويسخط لكم: قيل وقال. وإضاعة المال. وكثرة السؤال»[١] رواه مسلم في الصحيح.

فالاعتصام بحبل الله: هو المحافظة على طاعته، مراقباً لأمره، ويريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أنَّ الله أمرَ بها وأحبها؛ لا لمجرد العادة، أو لِعِلَةٍ باعثةٍ سوى امتثال الأمر، كما قال طلق بن حبيب في التقوى: «هي العمل بطاعة الله، على نور من الله؛ ترجو ثواب الله، وترك معصية الله، على نور من الله؛ تخاف عقاب الله»، وهذا هو الإيمان والاحتساب المشار إليه في كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - كقوله: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً، ومنْ قامَ ليلةَ القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له»، فالصيام والقيام: هو الطاعة والإيمان ومراقبة

---

(١) صحيح مسلم رقم (١٧١٥) ٣/ ١٣٤٠، وصحيح ابن حبان، ومسند أحمد، وموطأ مالك رقم (١٧٩٦).

الأمر، وإخلاص الباعث: هو أن يكون الإيمان الآمر لا شيء سواه، و الاحتساب رجاء ثواب الله .

والاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل، وأمَّا الاعتصام به: فهو التوكل عليه، والامتناع به، والاحتماءُ به، وسؤاله أنْ يحمي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه، فإنَّ ثمرة الاعتصام به: هو الدفع عن العبد، والله يدافع عن الذين آمنوا، فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يُفضي به إلى العطب ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات وكيد عدوه الظاهر والباطن وشر نفسه، ويدفع عنه مُوجِبُ أسباب الشر بعد انعقادها بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه، فتفقد في حقه أسباب العطب فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه .

يا قاعداً سارت بهِ أنفاسه

سير البريد وليس بالذملان

حتى متى هذا الرقاد وقد سرى
وفد المحبة مع أولي الإحسان

وحَدَتْ بهم عزماتهم نحو العلى
لا حادي الركبان والأظعان

ركبوا العزائم واعتلوا بظهورها
وسروا فما حنوا إلى نعمان

ساروا رويداً ثم جاؤوا أولا
سير الدليل يؤم بالركبان

عرفوه بالأوصاف فامتلأت قلو
بهم له بالحب والإيمان

فتطايرت تلك القلوب إليه بال
أشواق إذْ مُلِئَتْ من العرفان

زاد السائر على الطريق

ولاَ يتم سير السائرِ علىَ الطريق إلاَّ بقوتين:

* قوة علمية.
* وقوة عملية.

فبالقوة العلمية يُبْصِرُ منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كَنُورٍ عظيمٍ بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يُبْصِرُ بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوِهاد والمتالف ويعثر الماشي به من الأحجار والشوك وغيره، ويُبْصِرُ بذلك النور أيضاً أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها.

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة

القوة العملية، فإنَّ السيرَ هو عمل المسافر، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبَقِيَ عليه الشطر الآخر وهو أنْ يضع عصاه على عاتِقِهِ ويُشَمِرُ مُسَافراً في الطريق قاطعاً منازلها منزلةً بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر، وكُلَّما سكنت نفسه من كِلالِ السير ومواصلة الشد والرحيل وعَدَها قُرْبَ التلاقي، وبرد العيش عند الوصول فيُحْدِثُ لها ذلك نشاطاً وفرحاً وهِمَّةً، فهو يقول: يا نفس، أبشري فقد قَرُبَ المنزل، ودَنَا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول، فيُحال بينك وبين منازل الأحبة، فإنْ صَبَرتِ وواصلتِ المَسْرَىَ وصلت حميدة مسرورة جذلة، وتلقتك الأحبة بأنواع التُحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلاَّ صبر ساعة، فإنَّ

الدنيا كُلِّها كساعةٍ من ساعات الآخرة، وعُمرك درجة من درج تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المَفَازة، فهو الهلاك والعطب لو كنتِ تعلمين، فإن اسْتَصْعَبت عليه فليُذكرها ما أمامها من أحبابها، وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء، فإن رَجَعَتْ فإلىَ أعدائها رجوعها، وإنْ تقدمت فإلىَ أحبابها مصيرها، وإنْ وقَفَتْ في طريقها أدركها أعداؤها، فإنَّهم وراءها في الطلب، ولابُدَ لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة، فلتختر أيُها شاءت، وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها، وصِدْق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها، ولا يُوحشه انفرادٌ في طريق سفره، ولا يغتر بكثرة المنقطعين، فألم انقطاعه وبِعَادِه وَاصِلٌ إليه دونهم، وحظَّه من القُرْبِ والكرامة مُختصٌ به دونهم، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع

معهم؟ وليعلم أنَّ هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلامة والوصول إليهم، فيا قُرة عينهِ إذْ ذاكَ، ويا فرحته إذ يقول: ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ﴾ (يس: ٢٦ - ٢٧)، ولا يستوحش مِمَّا يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها، فكُلَّما أدْمَنَ على السير، وواظب عليه غدواً ورواحاً وسحراً، قَرُب من الدار وتلطفت تلك الكثافة، وذابت تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه هِمَّةُ المُسافرين وسيماهم، فتَبَدَلَتْ وحشته أُنْساً وكثافته لطافةً ودَرَنُه طهارةً.

الصبرُ علىَ بُعْدِ المفازة

ولمَّا كانت الطريق طويلة كانَ لابد من الاستعانة بالصبر عليها، قال ابن القيم رحمه الله: لابد للسائر من الصبر ولا ينفك عنه بحال من الأحوال، قال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى -: «الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً»، وهو واجبٌ بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإنَّ الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً:

الأول: الأمر به، نحو قوله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة: ١٥٣)، وقوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة: ٤٥)، وقوله عز وجل: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، وقوله جل وعلا: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ (النحل: ١٢٧)، الثاني: النهي عن ضده كقوله تبارك اسمه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا

صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف: ٣٥) وقوله عز وجل: ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ (الأنفال: ١٥)، فإنَّ تولية الأدبار: ترك للصبر والمُصابرة، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ (محمد: ٣٣)، فإنَّ إبطالها ترك الصبر على إتمامها، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ (آل عمران: ١٣٩)، فإنَّ الوهن مِنْ عدم الصبر، الثالث: الثناء علىَ أهله، كقوله - تعالى -: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٩) الآية، وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (البقرة: ١٧٧)، وهو كثيرٌ في القرآن، الرابع: إيجابه - سبحانه - محبته لهم، كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (آل عمران: ١٤٦)، الخامس: إيجاب معيته لهم، وهي معيّةٌ خاصةٌ تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، ليست معية عامة. وهي معية العلم والإحاطة، كقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ

ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وقوله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (النحل: ١٢٦)، وقوله تبارك اسمه: ﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (النساء: ٢٥)، السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (النحل: ٩٦)، الثامن: إيجابه - سبحانه - الجزاء لهم بغير حساب. كقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر: ١٠)، التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر، كقوله - تعالى-: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٥)، العاشر: ضمان النصر والمدد لهم، كقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (آل عمران: ١٢٥)، ومنه

قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «واعلم أن النصر مع الصبر»[١]، الحادي عشر: الإخبار منه - تعالى - بأنَّ أهل الصبر هم أهل العزائم، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤٣)، الثاني عشر: الإخبار أنَّه ما يلقى على الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلاَّ أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ (القصص: ٨٠)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٥)، الثالث عشر: الإخبار أنَّه إنَّما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر، كقوله - تعالى - لموسى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥)،

---

(١) مستدرك الحاكم رقم (٦٣٠٣، ٦٣٠٤) ٣/ ٦٢٣، ومسند الإمام أحمد رقم (٢٨٠٤) ١/ ٣٠٧.

وقوله سبحانه في أهل سبأ: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (سبأ: ١٩)، وقوله سبحانه في سورة الشورى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الشورى: ٣٢ - ٣٣)، الرابع عشر: الإخبار بأنَّ الفوز المطلوب المحبوب، والنَّجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنَّما نالوه بالصبر، كقوله - تعالى -: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ (الرعد: ٢٣ - ٢٤)، الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (السجدة: ٢٤)، السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان، كمَا

قَرَنَهُ الله - سُبحانه - باليقين وبالإيمان، والتقوى والتوكل، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولِهذا كانَ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لِمَنْ لاَ صبر له، كمَا أنَّه لَا جسد لمن لاَ رأس له، وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «خير عيش أدركناه بالصبر»، وأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح: «أنَّه ضياء» وقال: «ومن يتَصبَّر يُصَبِّره الله»[١]، وفي الحديث الصحيح: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإنَّ أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»[٢]، وقال للمرأة

---

(١) صحيح البخاري رقم (١٤٠٠) ٢/ ٥٣٤، و(٦١٠٥) ٥/ ٢٣٧٥، وصحيح ابن حبان وغيره.

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٩٩٩) ٤/ ٢٢٩٥، وصحيح ابن حبان رقم (٢٨٩٦) ٧/ ١٥٥ والمسند برقم (١٨٩٥٩).

السوداء التي كانت تُصرع فسألته: أن يدعو لها: «إنْ شئتِ صبرت ولَكِ الجنَّة»[١]، وأمر الأنصار- رضي الله تعالى عنهم - بأنْ يصبروا على الأَثَرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض، وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر، وأمر بالصبر عند المصيبة وأخبر أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى، وأخبر - صلى الله عليه وسلم - أن الصبر خير كله، فقال: «ما أُعطى أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصبر»[٢].

والصبر في اللغة: الحبس والكف، ومنه قوله - تعالى -: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (الكهف: ٢٨) أي احبس نفسك

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري رقم (٥٣٢٨) ٥/ ٢١٤٠، وصحيح مسلم رقم (٢٥٧٦) ٤/ ١٩٩٤.

(٢) صحيح ابن حبان رقم (٣٣٩٩) ٨/ ١٩٢، ومستدرك الحاكم رقم (٣٥٥٢) ٢/ ٤٤٩، وسنن أبي داود رقم (١٦٤٤) والبيهقي.

معهم، فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله.

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب، والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وكان شيخ الإسلام يقول: «الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية».

وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالمُصبِّر الأول: الاستعانة به، ورؤيته أنَّهُ هو المُصَبر، وأنَّ صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (النحل: ١٢٧) يعني: إنْ لم يُصَبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله: وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه والتقرب إليه، لا لإظهاره قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق، وغير ذلك من الأعراض.

والثالث: الصبرُ مع الله: وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية صابراً نفسه معها، سائراً بِسيرها مُقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها، وينزل معها أين استَقَلّتْ مضاربها.

فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أي: قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه، وهو أشد أنواع الصبر

وأصعبها وهو صبر الصديقين، وقيل: تَجَرَع الصبر، فإن قتلَك قتلَك شهيداً، وإن أحياك أحياك عزيزاً، فإنَّ النفس يُراد منها شيئان: بذل ما أُمرت به وإعطاؤه؛ فالحامل عليه السماحة، وترك ما نُهيت عنه والبعد منه؛ فالحامل عليه الصبر، وقد أمر الله - سبحانه وتعالى - في كتابه بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، و الصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه».

الصبر من آكد منازل محبة الرحمن :

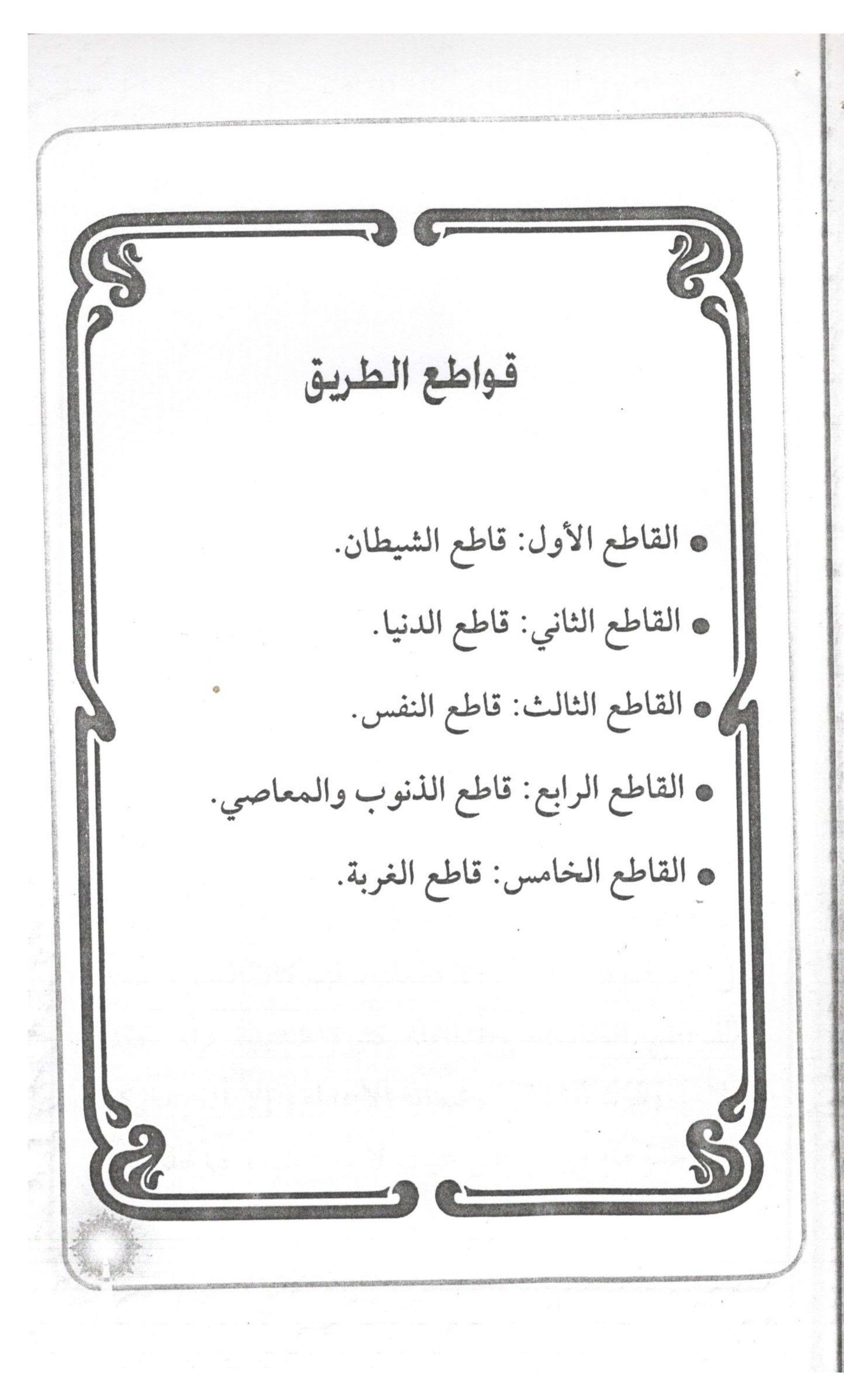
والصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين، وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة، وحاجة المحب إليه ضرورية، فإن قيل: كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية مع منافاته لكمال المحبة، فإنه لا

يكون إلاَّ معَ مُنازعات النفس لِمُراد المحبُوب ؟

قيل: هذه هي النكتة التي لأجلها كان من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها بها، وبه يُعلم صحيح المحبة من مَعْلولها، وصادقها من كاذبها، فإنَّ بقوة الصبر علىَ المَكَارِه في مراد المحبوب يعلم صحة محبته، ومن ههنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة؛ لأنَّهم كلهم ادعوا محبة الله - تعالى -، فحين امتحنهم بالمَكَاره انخلعوا عن حقيقة المحبة، ولم يثبت معه إلاَّ الصابرون، فلولاَ تحمُل المَشَاق وتجشُم المَكَاره بالصبر: لما ثبتت صحة محبتهم وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً.

ولهذا وَصَفَ الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ (سورة ص، الآية ٤٤) ثم أثنى عليه. فقال سبحانه: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾، وأمر أحبَّ الخلق إليه بالصبر لحُكْمِهِ، وأخبر أن صبره به، وأثنى على الصابرين أحسن الثَنَاء،

وَضَمِنَ لهم أعظم الجزاء، وجَعَلَ أجر غيرهم مَحْسُوباً وأجرهم بغير حساب، وقَرَنَ الصبر بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان - كما تقدم - فجعله قرين اليقين، والتوكل، والإيمان، والأعمال، والتقوى. ا.هـ



قواطع الطريق

- القاطع الأول: قاطع الشيطان.
- القاطع الثاني: قاطع الدنيا.
- القاطع الثالث: قاطع النفس.
- القاطع الرابع: قاطع الذنوب والمعاصي.
- القاطع الخامس: قاطع الغربة.

قواطع الطريق

قالَ الإمامُ ابن القيم - رَحِمَهُ الله -: وفي الطريق أودية وشعوب، وعقبات ووهود، وشوك وعوسج، وعُليق وشبرق، ولُصوص يقتطعون الطريق علىَ السائرين.. فإذا لم يكن مع السائر عُدد الإيمان...، وإلاَّ تعلقت به تلك الموانع، وتشبَثت بهم تلك القواطع وحالت بينه وبين السير؛ لأنها كثيرة، وشأنها شديد لا يخلُص من حبائلها إلاَّ الواحد بعد الواحد، ولولا هذه القواطع لرأيت الطريق معمورة بالسالكين، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها ولكن الله يفعل ما يريد، والوقت - كما قيل - سيف فإن قطعته وإلا قطعكَ، فإذا كان السير ضعيفاً والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة فإنَّه جَهْد البلاء، ودَرَك الشقاء، وشماتة الأعداء، إلاَّ أن يتداركه الله برحمةٍ منه وينجيه من حيث لا يحتسب، فيأخذ بيده

ويخلصه من أيدي القواطع ، فإنَّ أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لمَّا عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته. (وأول هذه القواطع...)

قاطع الطريق الأول: الشيطان

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : (ما بالك) برجُلٍ مُسَافر سائر علىَ الطريق بطمأنينةٍ وأمن، فهو يعدو مرة ويمشي أخرى، ويستريح تارةً وينام أخرى، فبينا هو كذلك إذ عرض له في سيره ظِلٌّ ظليل، وماء بارد ومَقِيل، وروضة مزهرة، فدعته نفسه إلى النزول علىَ تلك الأماكن فنزل عليها، فوثب عليه منها عدوه، فأخذه وقيَّده وكتَّفه ومَنَعه عن السير حتى عاين الهلاك، وظنَّ أنه مُنْقَطِع به، وأنَّهُ رِزْق الوحوش والسباع، وأنَّه قَدْ حِيلَ بينه وبين مقصده الذي يؤُمُّه، فبينما هو على ذلك تتقاذفه الظنون، إذْ وقفَ على رأسه والده الشفيق القادر فحلَّ كتافه وقيوده وقال له: اركب الطريق، واحذر هذا العدو فإنَّه علىَ منازل الطريق لكَ بِالمرصاد، واعلم أنَّكَ ما دمت حاذراً منه مُتيقظاً له لا يقدر عليك، فإذا غفلت وثَبَ عليك، وأنا مُتَقَدِمكَ إلى المنزل، وفرط لك فاتبعني على الأثر، فإنْ

أطاعه فاز ونجا، وإن عصاه غوى وهلك.

فالشيطان هو القاطع الأول لأنه العدو الأول، فهو جالس بالرَّصد على الطريق لا يَكِلُّ ولا يمل ولا يفتر، فما من طريق من طُرق الخير إلاَّ والشيطان قاعدٌ عليه، متربص بابن آدم يقطع عليه السبيل، تحقيقاً لما قطعه على نفسه: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٦ - ١٧)، قال جمهور المفسرين: التقدير: «لأقْعُدَنَّ لهم علىَ صِرَاطَكَ المُستقيم»، قال ابن القيم: «الظاهر أنَّ الفعل مُضمر، فإنَّ القاعد على الشيء مُلازِمٌ له، فكأنَّه قال: لألزِمنَّه، ولأرصُدَنَّه، ولأُعوجنه، ونحو ذلك»، ثم قال: «السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارةً يأخذ على جهة يمينهِ، وتارةً على شمالهِ، وتارةً أمامه، وتارةُ يرجع خلفه، فأي سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها

راصداً له، فإن سلكها في طاعةٍ وجده عليها ثَبَّطه عنها ويقطعه أو يُعوقه ويُبطئه، وإنْ سَلكها لمعصية (حمله لها ووجده) خادماً ومُعيناً، ولو اتَّفَقَ له الهبوط إلى أسفل لأتَاه من هناك وفي حديث سبرة بن الفاكه: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرُقهِ كلها، فقعدَ له بِطَريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطرق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول، فعصَاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد - وهو جهاد النفس والمال - فقال: تقاتل فتقتل فتُنكح المرأة ويُقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهِد»[1]. وعبدالله قال: خطَّ رسول الله خطّاً، وخط عن يمين الخط وعن شماله خطوطاً، ثم قال: «هذا صراط الله مستقيما وهذه السبل

---

(١) صحيح ابن حبان رقم (٤٥٩٣) ١٠/ ٤٥٣، وسنن النسائي رقم (٣١٣٤) ٦/ ٢١، والسنن الكبرى رقم (٣٤٢)، والمسند (١٦٠٠٠).

على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثُمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٣) »[(١)]، قال قتادة: «أتاكَ الشيطانُ يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله»، وقال شقيق: «ما من صباح إلاَّ قعد لِيَ الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فيقول: «لا تخف فإن الله غفور رحيم»، فاقرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (طه: ٨٢)، وأما من خلفي: فيخوفني الضيعة على من أخلفه، فاقرأ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود: ٦) ومن قِبَل يميني، يأتيني من قِبَل النساء، فاقرأ: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨) ومن قِبَل

---

(١) صحيح ابن حبان رقم (٦، ٧) ١/ ١٨٠، ومستدرك الحاكم رقم (٢٩٣٨، ٣٢٤١)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٧٤، ١١٧٥) ٦/ ٣٤٣.

شمالي فيأتيني من قبل الشهوات، فاقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (سبأ: ٥٤)، قال ابن القيم: «فقول عدو الله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ (الأعراف: ١٧) يتناول الدنيا والآخرة»[١].

(وللشيطانِ الرجيم حِيلٌ وأساليب قَدْ أجادها وأتقنها وتفَنَّنَ فيها، فَسَحَر بها القلوب، وسَلَبَ بها العقول، فلم يَسْلَم من هذا السحر إلاَّ مَنْ سَلَّمَه الله) فلا إله إلا الله! كم فتن بهذا السحر من إنسان، وكَمْ حالَ بِهِ بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان! وكَمْ جلاَّ الباطل وأبرزه في صورة مُستحسنة، وشنَّع الحق وأخرجه في صورة مُستهجنة! وكم بهرَجَ من الزيوف على الناقدين، وكم رَوج من الزَغَل على العارفين! فهو الذي سَحَرَ العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلكَ بهم من سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من

(١) إغاثة اللهفان.

المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونِكاح الأمهات، ووعدهم الفوز بالجنات مع الكُفر والفُسوق والعِصيان، وأبرزَ لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكَلُمِهِ بِكُتُبِهِ في قالب التنزيه، وترْك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (المائدة، من الآية: ١٠٥)، والإعراض عما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - في قالب التقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم، والنفاق والإدِّهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس، فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة، وصاحب قابيل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أُغرقوا، وقوم عاد حين أُهلكوا بالريح العقيم، وصاحب قوم صالح حين أُهلكوا بالصيحة، وصاحب الأمة

اللوطية حين خُسِفَ بهم وأُتبعوا بالرجم بالحجارة، وصاحب فرعون وقومه حين أُخذوا الأخذةَ الرابية، وصاحب عُبَّاد العجل حين جرى عليهم ما جرى، وصاحب قريش حين دعوا يوم بدر، وصاحب كل هالك ومفتون» ا. هـ.

(ومن عجبٍ أن كل إنسان يعرف تمام المعرفة بالفطرة والعقل والشرع، أن الشيطان هو عدوه الأول، وأنه قاعد له بكل طريق من طُرق الخير، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ ﴾ (فاطر: من الآية ٦)، بيد أن هذه المعرفة تبقى مجرد معرفة لا وزن لها ولا اعتبار، ما لم يكن لها تأثير في الجانب التطبيقي من حياة الإنسان، وهو جانب: ﴿ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ ﴾.

فهذه المعرفة لا يؤتى لها أُكل ولا يُقطف لها ثمر ما لم يقف المرء مع نفسه وقفات يُحل فيها الحلال، ويُحرم فيها الحرام، ويجعل القوائم الفاصلة بينه وبين حدود الله

منصوبة، فإننا لا نخشى على النفوس الكافرة من الشيطان، فتلكم قد عاش فيها ورتع حتى غدا جزءاً منها؛ ولكن الخوف كل الخوف، على أنفس لم تحسب للشيطان حساباً واقعياً، بل إنها وإن كانت تعترف نظريّاً بقابليتها لألاعيبه وإغوائه لكونها غير معصومة، تجدها في الواقع لا تلتفت إليه ولا تقتنع بتسلله إليها من طُرُقِهِ الخفية، وهذه من أخبث ألاعيبه في المكر والاستخفاء؛ وهي نفاذه إلى نفوس تعتقد أنها معقمة ضده، أو محمية من آثاره، بعد أن كونت حولها هالة من الاطمئنان لوضعها العام)[١].

والأمر باتخاذه عدواً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، كأنه عدو لا يَفْتُر، ولا يقُصِّر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

---

(١) الحيل النفسية / نهاد درويش بتصرف.

عشرة أسباب للاعتصام من الشيطان :

الحرز الأول : الاستعاذة بالله من الشيطان، قال - تعالى -: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٦﴾ (فصلت: ٣٦)، وعن سليمان بن صرد قال: «كنتُ جالساً مع النبي - صلىَ الله عليه وسلم - ورجلان يستبان فأحدهما أَحْمَرَّ وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي - صلىَ الله عليه وسلم -: «إنِّي لأعلمُ كلمةً لوْ قالها ذهب عنه ما يجد لو قالَ: أعوذُ بالله مِنَ الشيطان الرجيم، ذهب عنه ما يجد»[1].

الحِرز الثاني : قراءة المعوذتين، فإنَّ لهُما تاثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شر الشيطان ودفعه والتحصن منه، ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «ما تَعوذ

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري رقم(٣١٠٨) ٣/ ١١٩٥، وصحيح مسلم رقم (٢٦١٠) ٤/ ٢٠١٥.

المتعوذون بمثلهما»[١].

الحرز الثالث : قراءة آية الكرسي ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: وَكَلني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بِحْفظ زكاة رمضان فأتى آت فجعل يَحْثُو مِنَ الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكر الحديث فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنَّه لاَ يزال عليكَ مِنَ الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان»[٢].

الحرز الرابع : قراءة سورة البقرة، ففي الصحيح من حديث سهل عن عبد الله عن أبي هريرة أنَّ رسول الله -

---

(١) سنن النسائي رقم (٥٤٢٩، ٥٤٣٠) ٨/ ٢٥٠، والسنن الكبرى (٧٨٤٧) ٤/ ٤٤٠، ومسند أحمد (١٥٤٨٦) ٣/ ٤١٧.

(٢) صحيح البخاري رقم (٢١٨٧) ٢/ ٨١٢، (٣١٠١) ٣/ ١١٩٤، (٤٧٢٣) ٤/ ١٩١٤.

صلى الله عليه وسلم - قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»[١].

الحرز الخامس: قراءة خاتمة سورة البقرة فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأنصاري، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[٢].

الحرز السادس: قراءة أول سورة: حم (المؤمن)، إلى قوله: ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾، مع آية الكرسي، ففي الترمذي عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ: حم (المؤمن)، إلى: ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾، وآية الكرسي حين يصبح حُفِظَ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما

---

(١) صحيح مسلم رقم (٧٨٠) ١/ ٥٣٩، وصحيح ابن حبان رقم (٧٨٣)، وسنن الترمذي رقم (٢٨٧٧) ٥/ ١٥٧.

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري رقم (٣٧٨٦) ٤/ ١٤٧٢، وصحيح مسلم رقم (٨٠٧) ١/ ٥٥٤.

حين يمسي حُفِظَ بهما حتى يصبح»[١].

الحرز السابع: (قَوْل): «لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» مائة مرة، ففي الصحيحين أنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «من قال: لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك»[٢].

الحرز الثامن: - وهوَ مِنْ أنفع الحروز من الشيطان -: كثرة ذكر الله - عز وجل -، ففي الترمذي أنَّ النبي - صلى

---

(١) سنن الترمذي رقم (٢٨٧٩) ٥/ ١٥٧ وقال أبو عيسى حديث غريب.

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري رقم (٣١١٩) ٣/ ١١٩٨، وصحيح مسلم رقم (٢٦٩١) ٤/ ٢٠٧١.

الله عليه وسلم - قال: «إنَّ يحيى بن زكريا جمعَ الناس في بيت المقدس، فقال: إنَّ الله أمرني بخمس كلمات أنْ أعمل بِهنَّ وآمُركم أنْ تعملوا بهنَّ (وكان من جملة ما ذكره): أن تذكروا الله، فإنَّ مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتىَ أتىَ على حصنٍ حصين فأحرز نفسه منهم»[1]، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلاَّ بذكر الله ...

الحرز التاسع: الوضوء والصلاة، وهذا مِنْ أعظم ما يتحرز به منه؛ ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنَّها نارٌ تغلي في قلب ابن آدم.

الحرز العاشر: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس، فإنَّ الشيطان إنَّما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة.

---

(١) سنن الترمذي رقم (٢٨٦٣) ١٤٨/٥ وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

القاطع الثاني: الدنيا

(ثاني هذه القواطع هو: التعلق بالدنيا فالسائر إلى الله والدار الآخرة (يجب) أن يقوم في نفسهِ شاهد العلم بحقيقة الدنيا وحقارتها، وقِلّة وفائها، وكثرة جفَائها، وخِسَة شُركائها، وسُرعة انقضائها ويرى أهلها وعشاقها صرعى حولها، قد بدَّعت بهم، وعذبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم أمرَّ الشراب، أضحكتهم قليلاً، وأبكتهم طويلاً، سقتهم كؤوس سمها بعد كؤوس خمرها فسكروا بحبها وماتوا بهجرها، قال الله - تعالى -: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠)، وقال - تعالى -: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ

هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ (الكهف: ٤٥)، وقال - تعالى -: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ (النساء: ٧٧)، وقال - تعالى -: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأعلى: ١٦ - ١٧)، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ (طه: ١٣١)، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ (الكهف: ٧ - ٨)، والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بِخِسَّتِهَا، وقلتها، وانقطاعها وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة، والإخبار بِشَرَفِهَا ودوامها، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً أقامَ في قلبه شاهداً يُعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار.

فإذا قامَ بالعبدِ هذا الشاهد منها تَرَحَل قلبه عنها، وسافر في طلب الدار الآخرة وحينئذٍ يقوم بقلبه شاهد من

الآخرة ودوامها، وأنَّها هي الحيوان حقاً، فأهلها لا يرتحلون منها ولا يظعنون عنها، بل هي دار القرار، ومحط الرجال، ومُنتهى السير، وأنَّ الدنيا بالنسبة إليها كمَا قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع؟»[١]، وقال بعض التابعين: «ما الدنيا في الآخرة إلا أقل من ذرة واحدة في جبال الدنيا».

ثُمَّ يقوم بقلبه شاهدٌ من النار، وتوقدها واضطرامها وبُعد قعرها، وشدة حرها، وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سِيقوا إليها سُود الوجوه، زُرْق العيون، والسلاسل والأغلال في أعناقهم فلما انتهوا إليها فُتِّحَتْ في وجوههم أبوابها؛ فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفاً، (قال - تعالى -): ﴿وَرَءَا

---

(١) صحيح ابن حبان رقم (٤٣٣٠) ١٠/ ١٧٣، وسنن الترمذي رقم (٢٣٢٣) ٤/ ٥٦١.

ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (الكهف: ٥٣)، فأراهم شاهد الإيمان، وهم إليها يُدْفَعون، وأتى النداء من قبل رب العالمين: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ (الصافات: ٢٤)، ثم قيل لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الطور: ١٤-١٦)، فيراهم شاهد الإيمان وهُم في الحميم، علىَ وجوههم يسحبون، وفي النار كالحطب يسجرون ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ ﴾ (الأعراف: ٤١) فبئس اللحاف وبئس الفراش، وإن استغاثوا من شدة العطش: ﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ ﴾ (الكهف: ٢٩)، فإذا شربوه قطّع أمعاءهم في أجوافهم وصَهَرَ ما في بطونهم، شرابهم الحميم، وطعامهم الزقوم: ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ

وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (فاطر: ٣٦ - ٣٧) .

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد؛ انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع الشهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه، وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه، وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بُعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات، والمواد المهلكة، وينضجها ثم يخرجها فيجد القلب لذة العافية وسرورها....

فيقوم به بعد ذلك شاهدٌ من الجنة، وما أعدَّ الله لأهلها فيها ممَّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فضلاً عمَّا وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المُفصل، الكفيل بأعلىَ أنواع اللذة، من المطاعم والمشارب، والملابس والصور، والبهجة

والسرور، فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها: تُربتُها المسك، وحَصْبَاؤها الدُّر، وبناؤها لبن الذهب والفضة، وقصب اللؤلؤ، وشرابها أحلىَ مِنَ العسل، وأطيب رائحةً من المسك، وأبرد من الكافور، وألذُّ من الزنجبيل، ونساؤها لَوْ بَرَزَ وجه إحداهُنَّ في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس، ولباسهم الحرير من السندس والإستبرق، وخدمهم وِلدانٌ كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غوْل ولا هم عنها ينزفون، وخُضرتهم فاكهة مما يتخيرون، وشاهدهم حور عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يُحبرون وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، قال الجُنيد: سمعت سرياً يقول: «إنَّ الله – عز وجل – سَلَبَ الدنيا عن أوليائه

وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده، لأنه لم يرضها لهم .

فالسير في طلبها سير في أرض مُسْبِعة، والسباحة فيها سباحة في غدير التمساح، والمفروح به هو عين المحزون عليه، آلامها متولدة من لذاتها وأحزانها من أفراحها :

مآرب كانت في الشباب لأهلها
عذاباً فصارت في المشيب عذاباً

(فاللهم اكفنا شر الدنيا ، فالموفق من بانت له حقيقة الدنيا وقلة المقام فيها ، فأمات فيها الهوى طلباً لحياة الأبد، وغضَّ عنها الطرف استعدادا لقوله: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الحاقة: ٢٤)) .

مَثَلٌ للدنيا يُعين السَائِرَ علىَ الطريق :

قالَ ابن القيم - رَحِمَهُ الله -: «هو من أحسن الأمثلة: أنَّ مَلِكاً بنىَ داراً، لم يرَ الراءون، ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع، ولا أجمع لِكُلِ مَلاذ النفوس منها، و نصب لها طريقاً، وبعث داعياً يدعو الناس إليها، وأقعدَ علىَ الطريق امرأة جملية قد زُينت بأنواع الزينة، وألبست أنواع الحُلي والحلل، ومَمَر الناس كلهم عليها، وجعلَ لها أعواناً وخدماً تحت يدها ويد أعوانها، زاداً للمَارِين السائرين إلىَ الملك في تلك الطريق، وقال لها ولأعوانها: مَنْ غضَّ طرفه عنك.. ولم يشتغل بك عني، وابتغى منك زاداً يوصله إليَّ فاخدميه وزوديه، ولا تعوقيه عن سفره إليَّ، بلْ أعينيه بكل ما يُبَلّغه في سفره، ومن مدَّ إليك عينيه وَرَضِيَ بك، وآثرك عليَّ، وطلب وِصَالَكِ، فَسُوميه سوء العذاب، وأوليه غاية الهوان، واستخدميه، واجعليه يركض خلفك ركض

الوحش، ومن يأكل منك، فاخدعيه به قليلاً، ثُمَّ استرديه منه و اسلبيه إياه كله، وسلطي عليه أتباعك وعبيدك، وكلما بَالَغَ في محبتك وتعظيمك وإكرامك، فقابليه بأمثاله قِلَىً وإهانةً وهَجْرَاً، حتى تتقطع نفسه عليك حسرات. (وهذا هو حال الدنيا مع ابن آدم، من أهانها رفعته، ومن أعزها أهانته) .

القاطع الثالث: النفس

قالَ ابن القيم - رَحِمَه الله -: « مِنْ قواعد القوم المُجْمَعِ عليها والتي اتفقت كلمة أولهم وآخرهم، ومُحْقِهم ومُبْطلهم عليها: أنَّ النفس حجاب بين العبد وبين الله، وأنَّه لا يصل إلى الله حتى يقطع هذا الحجاب»، والمراد بالنفس: ما كان معلوماً من أوصاف العبد، مذموماً من أخلاقه وأفعاله، سواء كان ذلك كسبياً، أو خُلُقياً. فهو شديد اللائمة لها، وهذا أحد التأويلين في قوله - تعالى -: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة: ٢) قال سعيد بن جبير وعكرمة: تلوم على الخير والشر، ولا تصر على السراء ولا على الضراء، وقال قتادة: اللوامة: هي الفاجرة، وقال مُجاهد: « تندم على ما فات، وتقول: لو فعلت؟ ولو لم أفعل ؟» .

وقال الفراء: «ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها: إن كانت عملت خيراً قالت: هلا زدت؟ وإنْ

عملت شراً قالت: ليتني لم أفعل، وقال الحسن: هي النفس المؤمنة، إن المؤمن- والله - ما تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكلة كذا؟ ما أردت بكذا ؟ ما أردت بكذا؟ وإنَّ الفاجر يمضي قدماً قدماً، ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها، وقال مقاتل: هي النفس الكافرة، تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله في الدنيا.

والقصد: أنَّ من بذل نفسه لله بصدق كره بقاءه معَهَا؛ لأنَّه يريد أن يتقبلها من بُذِلَتْ له، ولأنَّه قد قربها له قربانا،. ومن قرب قرباناً فتُقُبِل منه ليس كمن رُدَّ عليه قربانه، فبقاء نفسه معه دليلٌ على أنه لم يتقبل قربانه، فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله - عز وجل - وكل سائر لا طريق لَهُ إلاَّ علىَ ذلك الجبل، فلابد أنْ ينتهي إليه، ولكنَّ منهم من هو شاق عليه، ومنهم من هو سهل عليه، وإنَّه ليسير علىَ من يسره الله عليه.

مقامات في مجاهدة النفس :

المقام الأول : مجاهدتها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلاَّ به، ومتى فاتها عِلمُه، شقيت في الدارين .

المقام الثاني : أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضُرَّها لم ينفعها .

المقام الثالث : أن يجاهدها على الدعوة إليْه، وتعليمهِ مَنْ لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعهُ علمُهُ، ولا ينجيه من عذاب الله .

المقام الرابع : أن يجاهدها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله .

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن السلف مُجمِعون على أن العالِمَ لا يستحقُّ أن يُسمى ربانياً حتى يعرف الحقَّ، ويعمل به،

ويُعَلِّمَه، فمن عَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّمَ فذاك يُدعى عظيماً في ملكوت السماوات.

مقامات في محاسبة النفس :

قال ابن القيم : يجب على العبد أن يكون في محاسبة نفسه أشد من محاسبة شريكه وهو على نوعين : نوع قبل العمل، ونوع بعده.

النوع الأول: محاسبة النفس قبل العمل :

فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى تبين له رجحانه علىَ تركه، قال الحسن رحمه الله : «رَحِمَ الله عبداً وقفَ عند همه، فإنْ كانَ لله مضىَ، وإنْ كانَ لِغَيْرِهِ تأخر»، وشرح هذا بعضهم فقال : «إذا تحركت النفس لِعَمَلٍ مِنَ الأعمال وَهمَّ بِهِ العبد، وقف أولاً ونظر : هل ذلك العمل مقدور له، أو غير مقدور ولا مُستطاع؟ فإن لم يكن مقدوراً لم يُقدم عليه، وإن كان

مقدوراً وقف وقفة أخرى ونظر: هل فِعْله خيرٌ له مِنْ تَرْكِهِ؟ أو تركه خير له من فعله؟، فإن كان الثاني تَرَكه ولم يُقْدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله - عز وجل - وثوابه؟ أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يُقدم عليه، وإن أفضى به إلى مطلوبه؛ لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى، حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى، ونظر: هل هو مُعانٌ عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجاً إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار، وإن وجده مُعاناً عليه فليُقْدِمْ عليه فإنَّه منصورٌ، ولا يفوت النجاح إلاَّ من فَوت خصلة من هذا الخصال، وإلاَّ فمَعَ اجتماعها لا

يفوته النجاح، فهذه أربع مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل، فما كُل ما يريد العبد فِعله يكون مقدوراً له، ولا كل ما يكون مقدوراً له يكون فعله خيراً له من تركه، ولا كل ما يكون فعله خيراً من تركِهِ يفعله لله، ولا كل ما يفعله لله يكون مُعاناً عليهِ، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يُقدم عليه، وما يحجم عنه.

النوع الثاني: مُحاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله - تعالى - فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله - تعالى - في الطاعة ستة أمور وهي:

١ - الإخلاص في العمل.
٢ - النصيحة لله - تعالى - فيه.
٣ - متابعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيه.

٤ - شهود مشهد الإحسان فيه .

٥ - شهود منة الله عليه .

٦ - شهود تقصيره فيه بعد ذلك كله .

فيُحاسب نفسه : هل وَفَّى هذه المَقَامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة ؟

الثاني : أنْ يُحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله .

الثالث: أنْ يُحاسب نفسه على أمر مباح ، أو معتاد : لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحاً ، أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به ؟ .

القاطعُ الرابع: الذنُوب والمعاصي

(وهذا هو رابع القواطع عن الله والدار الآخرة)، قال ابن القيم - رحمه الله - عنها: ومن عقوباتها (أي: المعاصي): أنَّها تُضْعِفُ سير القلب إلىَ الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو تُوقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إنْ لم تَرُده عن وجْهتِهِ إلى ورائه، فالذنب يَحْجِبُ الواصل، ويقطع السائر، ويُنكس الطالب، والقلب إنَّما يسير إلى الله بِقُوته، فإذا مَرِضَ بالذنوب ضَعُفَتْ تلك القوة التي تسيره، فإنْ زالت بالكُلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه، والله المستعان.

فهو إمَّا أن يُميت القلب، أو يُمرضه مَرضاً مخوفاً، أو يضعف قوته، ولا بد حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي - صلىَ الله عليه وسلم - وهي الهمّ، والحزن، والعجز، والكسل، والجبن،

والبخل، وضِلَع الدين، وغلبة الرجال. وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذيذة طيبة، لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة، لا نسبةَ لها إليها، وجعلَ للسيئات والمعاصي آلاماً وآثاراً مكروهةً، وحزازات تربي علىَ لذة تناولها بِأضعافِ مُضاعفةٍ، قال ابن عباس: «إنَّ للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وقوةً في البدن، وزيادةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخَلْقِ، وإنَّ للسيئةِ سواداً في الوجهِ، وظلمةً في القلبِ، وَوَهَناً في البدنِ، ونقصاً في الرزقِ، وبغضةً في قلوب الخلق، وهذا يعرفه صاحب البصيرة ويشهده من نفسه ومن غيره.

فمَا حصَلَ للعبد حال مكروهة قط إلاَّ بذنبٍ وما يعفو الله عنه أكثر، قال الله – تعالى –: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ (الشورى: ٣٠)، وقال لخيارِ خلقه وأصحاب نبيه: ﴿أَوَ لَمَّآ

أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٦٥) وقال سبحانه: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ (النساء: ٧٩)، والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النِّعم والمصائب التي تصيب العبد من الله، ولهذا قال: ما أصابك ولم يقل: ما أصبت.

فكل نقصٍ وبلاءٍ وشرٍ في الدنيا والآخرة فسببه الذنوب ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلاَّ الذنوب وموجباتها، وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال أمرٌ مشهود في العالم، لا ينكره ذو عقلٍ سليم، بَلْ يعرفه المؤمن والكافر، والبَرُّ والفاجر، وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره، وتأمُّله ومطالعته؛ مِمَّا يُقوي إيمانه بما جاءت به الرسل، وبالثواب والعقاب، فإنَّ هذا عدلٌ مشهودُ محسوسٌ في هذا العالم، ومثوبات وعقوبات عاجلة دالةٌ علىَ ما هو

أعظم منها لمن كانت له بصيرة، كما قال بعض الناس: إذا صدر مني ذنب ولم أبادره، ولم أتداركه بالتوبة انتظرت أثره السيئ، فإذا أصابني - أو فوقه أو دونه - كما حَسِبْتُ؛ يكون هجيراي: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ مُحمداً رسول الله»، ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته، فإنَّ الصادق متىَ أخبرك أنَّكَ إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا؛ فجَعلتَ كُلَّما فعَلت شيئاً من ذلك حصل لكَ ما قال من المكروه، لمْ تَزْدَدْ إلاَّ عِلماً بِصدقهِ وبصيرةً فيه، وليس هذا لكل أحد، بل أكثر الناس ترين الذنوب على قلبه، فلا يشهد شيئاً من ذلك ولا يشعر به ألبتة.

وإنَّما يكونُ هذا القلب فيه نور الإيمان، وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه، فهو يُشَاهدُ هذا وهذا، ويرىَ حال مِصْبَاح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح، فيرىَ نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب

السفينة وتكفئها ولاَ سِيمَا إِذَا انكسرت به وبقي علىَ لوحٍ تلعبُ بِهِ الرياح، فهكذا المؤمن يُشَاهد نفسَه عند ارتكاب الذنوب، إذا أُريد به الخير، وإنْ أُريد به غير ذلك فقلبه في وادٍ آخر.

ومتىَ انفتح هذا الباب للعبد انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم ومُجريات الخلق، بل انتفع بمجريات أهل زمانهِ وما يشاهده مِنْ أحوال الناس وَفَهِمَ حِينَئذٍ معنى قوله - تعالى -: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الرعد: ٣٣)، وقوله عز وجل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾ (آل عمران: ١٨)، فكُل ما تراه في الوجود مِنْ شَرٍ وألمٍ وعقوبةٍ وجدبٍ، ونقص في نفسك وفي غيرك؛ فهو من قيام الرب تعالى بالقسط، وهو عدل الله وقسطه، وإن أجْراه على يدِ ظالمٍ، فالمُسَلِطُ له أعدلُ العادلين، كما قال - تعالى - لمن أفسد في الأرض:

﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾ (الإسراء: ٥) - الآية -.

فالذنوب مثل السموم مُضرةٌ بالذات، فإنْ تداركها من سُقْيٍ بالأدوية المُقاومة لها، وإلاَّ قَهَرَتْ القوة الإيمانية وكان الهلاك، كما قال بعض السلف: «المَعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت».

فشهود العبد نقص حالهِ إذَا عصىَ ربه، وتَغَيُّر القلوبُ عليه، وجفْوَها منه، وانسداد الأبواب في وجههِ، وتوَعُّرِ المسالِكِ عليه، وهوانه علىَ أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أُتِيَ؟ ووقوعه على السبب المُوجب لذلك؛ مِمَّا يُقوي إيمانه، فإنْ أقلعَ وباشرَ الأسباب التي تُفْضِي بهِ إلىَ ضد هذه الحال، رأىَ العز بعد الذُّلِ، والغِنىَ بعدَ الفقرِ، والسرور بعد الحُزْنِ، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبهِ بعد ضعفه ووهنه؛ إزداد إيماناً مع إيمانهِ، فتقوى شواهد الإيمان في قلبه

وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته، فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الزمر: ٣٥).

وصاحبُ هذا المشهد متى تَبَصَّرَ فيه وأعطاه حقه صار من أطباء القلوب، العالمين بدائها ودوائها، فنفعه الله في نفسه، ونفع به من شاء من خلقه، والله أعلم.

القاطِعُ الخامس: الغُربة

(ومن قواطع الطريق الشعور بالغربة) ولو عَلِمَ السائر ما لهذه الغربة من عاقبةٍ حميدةٍ لتبدلت غربته وطناً، ووحدته سلوةً، وَتَفَرُّده على الطريق أُنْسَاً، قال ابن القيم - رحمه الله -: «أهل هذه الغربة هم أهل الله حقاً. فإنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله - صلى الله عليه وسلم -، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم، وهذه الغربة لا وحشَةَ على صاحبها، بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس، وأشَدُ ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فَوَلِيُه الله ورسوله والذين آمنوا، وإنْ عاداه أكثر الناس وجفوه.

ومِنْ هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: «رُبَّ أشعث أغبر، ذي طمرين

لا يُؤبَه له، لو أقْسَمَ على الله لأَبَرَّه»[١]، وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «ألا أُخبركم عنْ مُلُوكِ أهل الجنة؟ قالوا: بلىَ، يا رسول الله. قال: كل ضعيفٍ أغبر، ذي طمرين لا يُؤبه له، لو أقسم على الله لأبره»[٢]، وقال الحسن: «المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال وله حال، الناس منه في راحة وهو من نفسه في تعب».

صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبيَ صلى الله عليه وسلم:

١ - التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم.

---

(١) مستدرك الحاكم رقم (٧٩٣٢) ٤/ ٣٦٤، وسنن الترمذي رقم (٣٨٥٤) ٥/ ٦٩٢.

(٢) المعجم الكبير للطبراني رقم (١٥٩) ٢٠/ ٨٤، ومسند الشاميين رقم (١١٩٢) ٢/ ٢٠٥.

٢ - تجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس .

٣ - ترك الانتساب إلىَ أحدٍ غير الله ورسوله؛ لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة. بلْ هؤلاء الغرباء مُنتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقاً، وأكثر الناس - بل كلهم - لائمٌ لهم، فلغربتهم بين هذا الخلق يعُدُونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفَارقة للسواد الأعظم. ومعنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «هم النُّزَّاعُ مِنَ القبائلِ»، أنَّ الله - سبحانه - بعث رسوله، وأهل الأرض على أديانٍ مختلفةٍ، فهم بين عُباد أوثان ونيران، وعُباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة، وكانَ الإسلام في أول ظهوره غريباً، وكانَ مِنْ أسلمَ منهم، واستجابَ لله ولرسوله غريباً في حيِّهِ وقبيلته، وأهله وعشيرته .

فكان المُستجيبون لدعوة الإسلام نُزَّاعاً من القبائل،

بل آحاداً منهم تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم ودخلوا في الإسلام فكانوا هم الغرباء حقاً، حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجاً، فزالت تلك الغربة عنهم، ثم أخذ في الاغتراب والترحُل حتى عادَ غريباً كما بدأ، بل الإسلام الحق الذي كان عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه هو اليوم أشد غربةً منه في أول ظهوره، وإنْ كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة، فالإسلام الحقيقي غريب جداً، وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس .

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلاَّ بِمُخالفة ما جاء به الرسول؟ فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شحهم، وأعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي

- صلى الله عليه وسلم-: «مُروا بالمعروف، وانْهوا عن المنكر، حتىَ إذا رأيتم شُحًّا مُطاعاً وهوىً مُتبعاً، ودُنيا مؤثرة، وإعجاب كُلِ ذي رأيٍ برأيه، ورأيت أمراً لا يَدَ لكَ به، فعليك بخاصة نفسك، وإياك وعوامهم، فإن وراءكم أياماً صبرٍ، الصابر فيهن كالقابض على الجمر»(١).

ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه - أجر خمسين من الصحابة، ففي سنن أبي داود والترمذي، من حديث أبي ثعلبة الخشني، قال: «سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ (المائدة: ١٠٥)، فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوْا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحاً

---

(١) صحيح ابن حبان رقم (٣٨٥) ٢/ ١٠٨، ومستدرك الحاكم رقم (٧٩١٢) ٤/ ٣٥٨، وسنن أبي داود (٤٣٤١) ٤/ ١٢٣ وغيرهم.

مُطاعاً، وهوىً مُتبعاً، ودُنيا مُؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه؛ فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإنَّ مِنْ ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل قبض علىَ الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله»، قلت: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم»[١] .وهذا الأجر العظيم إنَّما هو لِغُرْبَتِهِ بين الناس، والتمسُك بالسُّنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المُؤمن الذي قدْ رَزَقه الله بصيرةً في دينه، وفِقْهاً في سنة رسوله، وفهماً في كتابه، وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه على قدح الجُهَّال، وأهل البدع فيه،

---

(١) المصدر السابق.

وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه - صلى الله عليه وسلم - فأمّا إنْ دعاهم إلى ذلك، وقدح فيها هم عليه؛ فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله .

حداة الطريق

- الحادي الأول: حادي التوكل على الله.
- الحادي الثاني: حادي القرآن الكريم.
- الحادي الثالث: حادي الرجاء.
- الحادي الرابع: حادي الحُب.
- الحادي الخامس: حادي الشوق.
- الحادي السادس: حادي الحياة الدائمة.
- الحادي السابع: حادي يوم المزيد.

فحيهلاً، إنْ كُنتَ ذا همةٍ فقد
حدا بك حادي الشوق فاطوِ المراحلا

وقل لمنادي حبهم ورضاهم:
إذا ما دعا لبيك ألفاً كواملاً

ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن
نظرت إلى الأطلال عدن حوائلا

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد
ودعه فإن الشوق يكفيك حاملاً

وخذ منهم زاداً إليهم وسر على
طريق الهدى والفقر تصبح واصلاً

وأحي بذكراهم سراك إذا ونت
ركابك، فالذكرى تعيدك عاملاً

وإما تخافن الكلال فقل لها:
أمامك ورد الوصل، فابغ المناهلا

وخذ قبساً من نورهم ثم سر به
فنورهم يهديك ليس المشاعلا

وحي على واد الأراك، فَقِلْ به
عساك تراهم فيه، إن كنت قائلاً

وإلا ففي نعمان عند معرف الـ
أحبة فاطلبهم إذا كنت سائلاً

وإلا ففي جمع بليلته فإن
تفت، فمتى؟ يا ويح من كَان غافلاً

وحي على جنات عدن بقربهم
منازلك الأولى بها كنت نازلاً

ولكن سباك الكاشحون لأجل ذا
وقفت على الأطلال تبكي المنازلا

فدعها رسوماً دارسات فما
بها مقيل فجاوزها فليست منازلا

رسوم عفت يفنى بها الخلق كم بها

قتيل! وكم فيها لذا الخلق قاتلاً!

وخذ يمنة عنها على المنهج الذي

عليه سرى وفد المحبة آهلا

وقل: ساعدي يا نفس بالصبر ساعة

فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي

ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

الحادي الأول : التوكلُ على الله

قال ابن القيم - رَحِمَهُ الله -: «التوكلُ مُصاحب لِلسائر الصادق من أول قدم يضعه في الطريق إلىَ نهايته، وكُلَّما ازداد قُربه وقوي سيره ازداد توكُّله، فالتوكل مركب السائر الذي لا يتأتى له السير إلاَّ به ومتى نزل عنه انقطع لوقته، وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته، قال الله - تعالى -: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (المائدة: ٢٣)، فجعل التوكل شرطاً في الإيمان، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (يونس: ٨٤)، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وقال - تعالى -: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (آل عمران: ١٢٢)، فَذَكَرَ اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكُلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضَعُف

الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفا فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد، والله - تعالى - يجمع بين التوكل والعبادة وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية.

الجمع بين التوكل والعبادة في سبعة مواضع من كتاب الله - تعالى -:

أحدهما: في سورة أُمِّ القرآن فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة: ٥).

والثاني: قوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ (هود: ٨٨).

الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة: ٤).

الرابع: قوله - تعالى - لنبيه محمد - صلى الله عليه

وسلم -: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ (المزمل: ٨ - ٩).

الخامس: قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٢٣).

السادس: قوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۝٧٨﴾ (الحج: ٧٨).

السابع: قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ (الرعد: ٣٠).

الجمع بين الإيمان والتوكل:

ففي مثل قوله - تعالى -: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ (الملك: ٢٩)، ونظيره قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ (المائدة: ٢٣)، وقوله - تعالى -: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٢٢﴾ (آل عمران: ١٢٢).

الجمع بين التوكل والإسلام :

ففي قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (يونس: ٨٤).

الجمع بين التقوى والتوكل :

ففي مثل قوله - تعالى -: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ (النساء: ٨١) وقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ﴾ (الطلاق: ٢ - ٣).

الجمع بين التوكل والهداية :

ففي مثل قول الرُسُل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ ﴾ (إبراهيم: ١٢) وقال الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم -: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ (النمل: ٧٩)، فإنَّ كوْن العبد علىَ الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلىَ رُكْنِهِ الشديد، فإنَّ الله هو الحق، وهو ولي

الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به، فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ (إبراهيم: ١٢)، فعجبوا مِنْ تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً، وهذا دليلٌ على أنَّ الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق - لعلمهِ بالحق ولثقته بأنَّ الله ولي الحق وناصره - مُضْطَرٌ إلى تُوكله على الله لا يجد بُدّاً من تَوكله، فإن التوكل يجمع أصلين: عِلْم القلب، وعمله، أمَّا علمه: فيقينه بكفاية وكِيله، وكمالُ قيامه بما وَكَلَه إليه، وأنَّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك، وأمَّا عمله: فسكُونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه، فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهُمَا جِمَاعُهُ.

الحادي الثاني : القرآن الكريم

قال ابن القيم : (هو) حادٍ يَحدُو القلوب، إلىَ جوارِ عَلاَّمِ الغيوب، وسائقٌ يَسوقُ الأرواح إلىَ ديارِ الأفراح، ومُحَرِكٌ يُثِير ساكن العَزَمَات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومُنادٍ ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، ودَاعٍ يدعو القلوب بالمساء والصباح من قِبَل فالِق الإصباح: «حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح». فلم يُعْدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحُجةٍ، وتَبصرةً لعبرةٍ، وتذكرةً لمعرفةٍ، وفكرةً في آية، ودلالة على رُشد، ورداً على ضلالةٍ، وإرشاداً من غيّ، وبصيرةً من عمىً، وأمراً بمصلحة، ونهياً عن مَضَرةٍ ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى، وحثًا على تُقىً، وجلاءً لبصيرةٍ، وحياةً لقلبٍ، وغِذَاءً ودواءً وشِفَاءً، وعِصْمِةً ونجاةً، وكشف شُبْهَةٍ، وإيضاح بُرْهان، وتحقيق حقٍ، وإبطال باطلٍ .

فلاَ شيءَ أنفع للقلب مِنْ قراءة القرآن بالتدبُر والتفكُر، فإنَّه لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يُورث المحبة والشوق والخوف والرَّجاء والإنَابة والتوكُل والرِضا والتفويض والشُكر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكَمالِه، وكذلك يزجُرُ عن جميعِ الصفات والأفعال المَذْمُومة التي بها فساد القلب وهلاكه، فلو عَلِمَ النَّاس ما في قراءة القرآن بالتدبُر لاشتغلوا بها عن كُلِ ما سواها.

فإذا قرأه بتفكر حتى مرَّ بآيةٍ وهو محتاج إليها في شفاءِ قلبهِ كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكُرٍ خير من قراءة ختمة بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفع للقلب وأدْعىَ إلى حصُول الإيمان وذوْق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف يُرَدِدُ أحدهم الآية إلى الصباح، وقد ثَبَتَ عن النبي - صلىَ الله عليه وسلم - أنَّه قام بآيةٍ يُرددها حتى الصباح وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ

﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨)، فَقِراءة القرآن بالتفكُر هي أصل صلاح القلب. ولهذا قال ابن مسعود : «لا تهُذُوا القرآنَ هذَّ الشعرِ، ولا تنثروه نثرَ الدَّقل، وَقِفُوا عند عجائبِه، وحرِكُوا به القلوب، لا يَكُنْ همَّ أحدكم آخر السورة»[١]، وروى أبو أيوب عن أبي جمرة قالَ : قلتُ لابن عباس: «إنِّي سريع القراءة إنِّي أقرأ القرآن في ثلاث»، قال: «لأنْ أقرأ سورةً مِنَ القرآن في ليلةٍ فأتدبرها وأُرتلها أحبَّ إليَّ من أنْ أقرأ القرآن كما تقرأ»[٢].

والسائرُ مع هذا الحادي يسير بِفْكرِهِ مع آيات الله، فتَتَزَاحم فيها صور الحاضر معَ الماضي، فيقْشَعِرُ جِلْدَهُ في مواطن الوجل، وتطمئن نفسه مع بواعث الطمأنينة، وتستجيشه مصادر الرغبة والرهبة، وتهزه معاني الوعد

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٨٧٣٣) ٢/ ٢٥٦، و (٣٠١٥٦) ٦/ ١٤١ .

(٢) سنن البيهقي رقم (٣٨٦٦) ٢/ ٣٩٦ .

والوعيد، فإذا سَمعَ الحادي يقرأ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠ ﴾ (الطور: ١٧ - ٢٠)، حثَّ السير، وأسرعَ بالمُطيّ، وحَنَّ، وأنَّ، وبَكَى شوقاً إليها، وإلى مَا وعَدَ الله فيها من الدرجات.

وإذا سَمِعَ الحادي يُحذر من النار بقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ (فاطر: ٣٧)، أجْفَلَ مِنْ طريقها خوفاً وهرباً وهَلَعاً منها، كأنَّ صِرَاخ أهلها يملأُ أذنيه وهم في الدَّركات.

(وإذا سَمِعَ الحادي يحدو بقول الله - تعالى -: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ (البروج: ٤-٧)، هانَتْ

عليه كل مَشَاق الطريق، وصارت وحشته أُنْسَاً، وضيقه سِعةً، وهو يصلُ حاضِرَهُ بماضيهِ مع أسلافهِ مِنْ تِلكَ الفئة المُؤمنة الواثقة بموعود الله لها، وهي تُشاهد بأُمِّ أعينها تلك الطريقة البشعة مِنَ القتل التي تنتظرها، وأمامهم قد جلس أصحاب تلك النفوس اللئيمة والجِبِلات الجامدة وهم يتشهوْن بمنظر المؤمنين وهم يصطلون في النار، ويستطيب خاطره وهو يستروح قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ (إبراهيم: ٤٢-٤٣)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ (المعارج: ٤٢-٤٤)، فهؤلاء القرآن حاديهم طول الطريق، يتلونه حق تلاوته، يُحلون حلاله، ويُحرمون حرامه، ويعملون

بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكِلون ما أُشْكِلَ عليهم فَهْمَهُ إلى عَالِمِهِمْ، وبالجُملة فهو قائدهم في السير، وسائقهم ودليلهم إلى جنات النعيم).

قال ابن القيم – رحمه الله –: «ونحنُ نرضىَ بِحُكْمِ أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد، ونناشدهم بالذي أنْزَلَ القرآن هدىً وشفاءً ونوراً وحياةً، هل وجدوا ذلك – أو شيئاً منه – في الدف والمزمار ونغمة الشادن ومُطْرِبَاتِ الألحان؟ والغناء المُشتَمِلُ علىَ تهييج الحُب المُطلق الذي يشترك فيه مُحب الرحمن، ومُحب الأوطان، ومُحب الإخوان، ومُحب العلم والعرفان، ومُحب الأموال والأثمان، ومُحب النسوان والمردان، فهو يُثير مِنْ قلب كُلِ مُشتاقٍ ومُحب لشيءٍ ساكنه، ويزعج قاطنه فيثور وجده، ويبدو شوقه فيتحرك على حَسَبِ ما في قلبه من الحُب والشوق والوَجْدِ بذلك المحبوب كائناً ما كان، ولهذا تجد لهؤلاءِ كُلهم ذوقاً في السماع، وحالاً

ووجداً وبكاءً، ويا لله العجب! أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تَحْصُل باستماع أبياتٍ بألحان وتوقيعات أكثرها قيلت فيما هو مُحَرمٌ يبغضه الله ورسوله ويعاقب عليه من غزلٍ وتشبيبٍ بِمَنْ لا يَحِلُ لهُ من ذَكَرٍ أو أُنثىَ؟ فإنَّ غالب التغزُّل والتشبيب إنَّما هو في الصور المحرمة.... وصاحب هذا القلب مَخْسُوفٌ بِهِ، مَمْكُورٌ بِهِ، مَنْكُوسُ لم يَصْلُحُ لحقائق القرآن وأذواق معانيه، ومطالعة أسراره » ا. هـ.

الحادي الثالث: الرجاء[1]

قال ابن القيم - رحمه الله -: الرجاءُ حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة ويُطَيِبُ لها السير، وقيلَ: هو الاستبشار بِجُودِ وفضلِ الربِّ - تباركَ وتعالى - والارتياح لمطالعة كرمه - سبحانه -، وقيل: هو الثقة بجود الرب - تعالى -، والفرقُ بينه وبين التَمني يكونُ مَعَ الكَسَلِ، ولا يَسْلُكُ بصاحبِهِ طريق الجدِّ والاجتهاد، والرجاءُ يكون مع بذل الجُهد وحُسْنِ التوكل، فالأول: كَحَالِ من يتمنى أنْ يكونُ لهُ أرضٌ يبذرها ويأخذ زرعها، والثاني : كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع، والرجاءُ لاَ يَصِحُ إلاَّ معَ العمل، وهو ثلاثة أنواع:

---

(١) كان المفترض أن يكون هذا المبحث عن الخوف، فاستعضنا بما ذكرناه في الرسالة الرابعة وهي: لماذا الخوف؟

نوعان: محمُودان، ونوع: غُرور مَذْمُوم.

فالأولان: رجاءُ رَجُلٍ عملَ بِطَاعَةِ الله على نورٍ مِنَ الله فهو رَاجٍ لثوابِهِ، ورَجُلٍ أذنبَ ذُنُوباً ثُم تابَ منها فهو راجٍ لمغفرةِ الله - تعالى - وعفوه وإحسانه وجُوده وحِلمه وكَرمِهِ.

والثالث: رَجُلٍ مُتَمَادٍ في التفريط والخطايا يرجُو رحمةَ الله بِلا عَمَلٍ، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب، قال الله - تعالى -: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ (الإسراء: ٥٧)، فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فَذَكَر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بِنَاؤه: الحب، والخوف، والرجاء. قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ ﴾ (العنكبوت: ٥)، وقال: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠ ﴾ (الكهف: ١١٠)، وقال - تعالى -:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (البقرة: ٢١٨)، وفي صحيح مسلم عن جابر - رضي الله عنه - قال: «سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول - قبل موته بثلاث -: «لا يَمُوتُنَّ أحدُكُم إلاَّ وهو يُحَسِنُ الظَنَّ بِرَبِهِ»[1] وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: «يقول الله - عز وجل -: أنا عِنْدَ ظَنّ عبدي بي فَلْيَظُنُ بي ما شَاءَ»[2].

ولِلسالِكِ نظران: نَظَرٌ إلى نفسهِ وعُيوبه وآفات عمله، يفتح عليه باب الخوف إلىَ سعة فضل ربه وكرمه وبره، ونَظَرٌ يفتح عليه بابُ الرجاء، وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء، فكُلُ مُحِبٍ رَاجٍ خَائفٌ بالضرورة فهو أرْجَىَ ما يكونُ لحبيبهِ أحبُ ما يكونُ إليهِ، وكذلك

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٨٧٧) ٤/ ٢٢٠٥، وصحيح ابن حبان رقم (٦٣٦، ٦٣٨) ٢/ ٤٠٣.

(٢) صحيح ابن حبان أرقام (٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥) ٢/ ٤٠٢، وسنن الدارمي رقم (٢٧٣١) ٢/ ٣٩٥، ومسند أحمد.

خوفه فإنَّهُ يخافُ سُقُوطه مِنْ عينيهِ، وطرد مَحْبوبِهِ له وإبعاده واحتجابه عنه، فخوفه أشد خوف، ورجاؤه ذاتيٌ للمحبةِ، فإنَّه يرجو قبل لقائهِ والوصول إليه؛ فإذا لَقِيَهُ وَوَصَلَ إليهِ اشتدَّ الرجاء له، لِمَا يَحْصُلُ لَهُ بهِ مِنْ حياة رُوحهِ، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبِرِّهِ وإقباله عليهِ، ونظره إليه بِعَيْنِ الرضى، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء وأجلُّه وأتَمُّهُ.

وبالجُملة: فالرجاء ضروري لِلسَالِكِ لوْ فَارَقَهُ لحظةً لتَلِفَ أو كادَ، فإنَّهُ دائرٌ بين ذنبٍ يرجو غُفْرَانَهِ، وعيبٌ يرجو إصلاحه، وعملٌ صالح يرجو قَبُوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقُربٌ من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها، ولا ينفكُّ أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها، فالرجاء حادٍ يحدُو بهِ في سيرهِ إلىَ الله ويُطَيِّبُ له المشي ويحُثُه عليه ويبعثُه على مُلاَزَمَتِهِ، فلولا

الرجاء لمَا سارَ أحدٌ، فإنَّ الخوف وحده لا يُحَرِكُ العبدَ، وإنَّمَا يُحَرِكَهُ الحُبُ ويُزْعِجَهُ الخوف ويَحْدُوه الرجاء.

والرجاءُ يطرحُ العبد على عتبة المحبة، ويُلْقِيه في دهليزها، فإنَّهُ كُلَّمَا اشتدَّ رَجَاؤه وحصَلَ لهُ ما يرجوه ازدادَ حُباً لله - تعالى - وشكراً له، ورِضَىً به وعنه.

الحادي الرابع: حَادي الحُبُّ

قال ابن القيم - رحمه الله - : «وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شَخَصَ العاملون، وإلى علمها شَمَّرَ السابقون، وعليها تفانى المُحِبُون، وبِرُوح نسيمها تَرَوح العابدون، فهي قُوت القلوب، وغِذاء الأرواح، وقُرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جُملة الأموات، والنُور الذي من فَقَدَهُ فهو في بِحَار الظُلُمَاتِ، والشفاء الذي من عُدِمَهُ حَلّتْ بقلبه جميع الأسقام، واللّذةُ التيِ مَنْ لم يظفر بها فَعَيْشه كُلُهُ همومٌ وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال التي متى خَلَتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلاَّ بِشِق الأنفس بالغيها، وتُوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصِلِيها، وتبوؤهم من مَقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخِليها، وهي مَطايا القوم

التي مسْراهم على ظُهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقْوَم الذي يُبَلِغهم إلىَ منازلهم الأولى مِنْ قَريبٍ، تالله لقد ذهبَ أهلُها بشرف الدنيا والآخرة، إذْ لهم من مَعِية محبُوبهم أوْفَر نصيب، وقد قضى الله يوم قدَّرَ مَقادير الخلائق - بمشيئته وحكمته البالغة - أنَّ المرء مع منْ أحبَّ، فيا لها من نِعْمَةٍ على المُحِبين سابِغَةً، تالله لقد سَبَقَ القوم السُعاةَ، وهُمْ علىَ ظُهور الفُرُش نائمُون، وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

من لي بمثل سيرك المدلل

تمشي رويدا؟ وتجي في الأول

أجابوا مُناديَ الشوق إذ نادىَ بِهِمْ: حيّ على الفلاح، وبذلوا نفُوسهم في طلبِ الوصُول إلى مَحبُوبِهِمْ وكان بذلهم بالرضىَ والسَماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدُو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد

القوم السرى عند الصباح.

فحيهلاً، إن كنت ذا هِمَةٍ، فقد
حدا بك حادي الشوق فاطوِ المراحلاَ

وقل لمُنادي حُبِّهم ورِضاهم
إذا ما دعا لبيك ألفاً كواملاً

ولا تنظر الأطلال من دُونهم، فإنْ
نظرتَ إلى الأطلال عُدْنَ حوائلا

ولا تنتظر بالسير رِفْقَةَ قاعدٍ
ودعه، فإنَّ الشوق يكفيك حاملاً

وخذ منهم زاداً إليهم، وسِرْ على
طريق الهُدى والفقر تُصبح واصِلاً

وأحي بذكراهم سراك، إذا وَنَت
ركابك، فالذكرى تُعيدك عاملاً

وإما تخافنَّ الكِلال. فقل لها:

أمامك وِرْدُ الوصل، فابْغِ المناهلاَ

وخذ قبساً من نورهم، ثم سِرْ بهِ

فنورهم يهديك، ليس المشاعلاَ

فتأخَّر البطالون، وقام المُحبون ينظرون: أيهم يصلح أن يكون ثمناً؟ فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد قوم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٥٤).

البينة على من ادعى:

لمَّا كَثُر المُدَعون للمحبة طُولبوا بإقامة البينة على صِحَةِ الدعوى، فلو يُعطَى الناس بدعواهم لادَّعى الخليُّ حُرقة الشجي، فقيل: لا تُقْبَل هذه الدعوى إلاَّ ببينة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١).

فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه فطُولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ (المائدة: ٥٤)، فتأخر أكْثَرُ المُحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المُحبين وأموالهم ليست لهم، فَهَلُمُوا إلى بيعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١)، فلما عَرَفوا عظَمة المُشتري، وفضل الثَمن، وجلالة من جَرىَ على يديه عقد التبايُع؛ عرفوا قَدْر السلعة، وأنَّ لها شأناً، فرأوا أنَّ مِنْ أعظم الغُبْنِ أنْ يبيعوها لغيره بِثَمَنٍ بَخْسٍ، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتَراضي من غير ثُبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلمَّا تمَّ العقد وسَلَّمُوا المَبيع، قيل لهم: مُذْ صارت نُفُوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معاً ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠).

(لأنَّه) إذا غُرِسَتْ شجرةُ المحبةُ في القلبِ، وسُقِيت

بماءِ الإخلاص ومُتَابعةِ الحبيب أثْمَرت أنواع الثمار، وآتت أُكُلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها مُتَصِلٌ بِسِدرة المُنتهى، لا يزال سعي المُحب صَاعِداً إلىَ حبيبهِ لا يحجبه دونه شيءٌ ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (فاطر: ١٠).

الأسبابُ المُوصلة إلىَ مَحبةِ الرحمن:

والأسباب الجالبة للمحبة، والمُوجبةُ لها عشرةٌ:

أحدها: قراءة القرآن بالتَدَبُّر والتَفَهُّم لمعانيهِ وما أُريد به، كَتَدَبُّرِ الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليَتَفَهَّمَ مُراد صاحبه منه.

الثاني: التقربُ إلىَ الله بالنَوافِل بعد الفرائض، فإنَّها تُوصِلهُ إلىَ درجةِ المَحْبُوبية بعد المحبة.

الثالث: دوامُ ذِكْرِهِ على كُل حالٍ: باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبة علىَ قَدْرِ نصيبه من هذا الذِكْرِ.

الرابع : إيثارُ مَحَابِهِ على محَابِكَ عند غلباتِ الهوىَ، والتسنُم إلى محابِهِ وإنْ صَعُبَ المُرتقى .

الخامس : مُطالعة القلب لأسمائهِ وصفاته، ومُشاهدتها ومعرفتها، وتقلُبه في رِياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عَرف الله بأسمائهِ وصفاتهِ وأفعالهِ أحبَّهُ لا محالةَ، ولِهذا كانت المُعطلة والفرعونية والجهمية قُطَاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصُول إلى المَحبوب.

السادس : مُشاهدة بِرِّهِ وإحسانهِ وآلائهِ، وَنِعَمِهِ الباطنة والظاهرة؛ فإنَّها داعيةٌ إلى محبتهِ .

السابع : وهو مِنْ أعجبها : انكسار القلب بِكُلِيَتِهِ بين يدي الله - تعالى - وليس في التعبير عن هذا المعنىَ غير الأسماء والعبارات .

الثامن : الخلوةُ به وقت النزول الإلهيّ، لمُناجاتهِ وتلاوة كَلامه، والوقوف بالقلب والتَأدُّبِ بأدبِ العبُودية بين يديه، ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مُجَالسة المُحبين الصادِقِين ، والتقاط أطايب ثمَرات كلامهم كما يُنْتَقَى أطايب الثمَر ، ولا تتكلم إلاَّ إذا تَرَجَحَت مصلحة الكلام ، وعلمت أنَّ فيهِ مَزِيداً لحالك ، ومنفعة لغيرك .

العاشر : مُباعدة كُل سَبَبٍ يحولُ بين القلب وبين الله – عز وجل – .

فبهذه الأسباب العشرة ؛ وصل المُحِبُون إلى مَنَازِلَ المحبةِ ودخلوا علىَ الحبيب ، ومِلاك ذلك كله أمران : استعداد الرُوح لِهذا الشأن ، وانفتاح عَين البصيرة .

الحادي الخامس: الشوق إلى جنات النعيم

قالَ ابنُ القيم : الاجتهاد في هذا العُمر قصير والمُدة قليلة، والسعي والكدح وتَحمُّل الأثقال والتعب والمشقة إنَّما هُو لِهذه الحياة، والعلوم والأعمال وسيلة إليها، وهي يقَظَةٌ وما قبلها من الحياة نوم، وهي عينٌ وما قبلها أثَرٌ، وهي حياةٌ جامعةٌ بين فقد المكروه وحُصُول المَحبُوب في مقامِ الأُنس وحضرة القُدس، حيثُ لا يتعَذر مطلوبٌ ولا يُفقد محبوب، حيث الطمأنينة والراحة والبهجة والسرور، حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها؛ لأنَّها في بلدٍ لا عهدَ لنا بِهِ، ولا إلفَ بيننا وبين ساكنه، فالنَّفس - لإلفها لهذا السجن الضيق النَّكِد زماناً طويلاً - تكره الانتقال منه إلىَ ذلك البلد، وتستوحش إذا استشعرت مُفَارقته.

وحُصُول العلم بِهَذِهِ الحياة إنَّما وصلَ إلينا بِخَبَرٍ إلهيّ

على يدِ أكمل الخلق وأعلمهم وأنْصَحهم - صلىَ الله عليهِ وسلّم - فقامت شواهدها في قُلوب أهل الإيمان حتى صارت لهم بمنزلة العِيان، فَفَرَتْ نُفُوسهم مِنْ هذا الظِل الزائل، والخيال المُضْمَحِلُ، والعيش الفاني المَشُوب بالتنغيص وأنواع الغُصَص؛ رغبةً في هذه الحياة، وشوقاً إلىَ ذلك الملكوت، ووجداً بِهذا السُرور، وطَرباً علىَ هذا الحدِّ، واشتياقاً لِهذا النَّسيم الوارد مِنْ محل النَّعيم المُقيم .

ولعَمُر الله إنَّ من سَافَرَ إلىَ بلد العدل والخَصْبِ والأمن والسُرور؛ صَبر في طريقهِ علىَ كُلِّ مَشَقةٍ وإعواز وجدبٍ، وفارَقَ المختلفين أحوج ما كان إليهم، وأجابَ المُنَادي إذا نَادى بهِ؛ حيّ علىَ الفَلاح، وبذلَ نفسهِ في الوصول بذل المُحب بالرِضَى والسمَاح، ووَاصَل السير بالغدو والرواح، فَحُمِدَ عند الوصول مَسراه، وإنَّما يُحْمَدُ المُسَافِرُ السري عند الصباح .

عِندَ الصَباح يَحْمَدُ القوم السري

وفي المَماتِ يَحمد القوم اللِقا

وما هذا - والله - بالصعب ولا بالشديد مع هذا العُمر القصير، الذي هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: ٤٥)، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ (النازعات: ٤٦)، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ (الروم: ٥٥)، ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ (المؤمنون: ١١٢ - ١١٤)، فلو أنَّ أحدَنا يُجرُّ علىَ وَجْهِهِ - يَتقِي بِهِ الشَوك والحِجارة - إلىَ هذهِ الحياة؛ لمْ يكُنْ ذلك كثيراً، ولا غُبْناً في جنب ما يتوقاه.

فواحسرتاه علىَ بصيرةٍ شاهدت هاتين الحياتين علىَ ما هُمَا عليه، وعلى هِمَّةٍ تُؤثر الأدنى على الأعلىَ، وما ذاك إلاَّ بتوفيقِ مَنْ أَزِمَّةِ الأمُور بيديهِ، ومنه ابتداء كل شيء وانتهاؤه إليه، أقعد نفوس مَنْ غلَبَتْ عليهم الشَقَاوة عن السفر إلىَ هذه الدار، وجذَبَ قلوب من سَبَقَتْ لهم منه الحسنى وأقامهم في الطريق، وسَهَلَ عليهم ركوب الأخطار فأضاعَ أولئك مراحِلَ أعمارهم مع المتخلفين، وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مِع السائرين، وعقدت الغَبْرَةَ، وثارَ العَجَاجُ، فتوارى عنه السائرون والمختلفون، وسَينْجَلِي عن قريب فيفوز العاملون ويخسر المبطلون .

ومِنْ طِيبِ هذهِ الحياة ولَذَتِها قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «ما مِنْ نفسٍ تَمُوت لهَا عِنْدَ الله خيرٌ، يَسُرها أنْ تَرْجِع إلىَ الدُنيا وأنَّ لهَا الدُنيا وما فيها؛ إلاَّ الشَهيد فإنَّهُ يتمنىَ الرجوع إلىَ الدُنيا؛ لِمَا يرىَ مِنْ كَرامةِ

الله لَهُ»[١]، يعني لِيُقْتَلُ فيهِ مرةً أخرىَ، وسَمِعَ بعضُ العارفين مُنشدا ينشد:

إنَّما العيش في بَهِيميةِ اللـ
ذة، وهو ما يقولُه الفلسفيّ
حكم كأس المنون: أنْ يتساوىَ
في حساها البليدُ والألْمَعيّ
ويصير الغبي تحت ثرى الأر
ض؛ كما صار تحتها اللوذعيّ
فَسَلِ الأرض عنهما إنْ أزالَ الشـ
كُ والشبهة السؤال الجليّ

فقال: «قاتله الله، ما أشدَّ مُعاندته للدين والعقل! هذا نفس عدو الفطرة والشريعة والعقل والإيمان

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري رقم (٢٦٤٢) ٣/ ١٠٢٩، وصحيح مسلم رقم (١٨٧٧) ٣/ ١٤٩٨.

والحكمة، يا مسكين! أَمِنْ أجْلِ أنَّ الموتَ تساوىَ فيه الصالح والطالح والعالم والجاهل وصَاروا جميعاً تحت أطباق الثري؛ أيَجِبُ أنْ يتساووا في العاقبةِ؟!! أمَا تساوىَ قومٌ سافَرُوا مِنْ بلدٍ إلى بلدٍ في الطريق، فلما بلغُوا القصد نزل كُل واحد في مكان كان مُعَداً له، وتُلُقِيَ بغير ما تُلُقِيَ به رفيقه في الطريق! أمَا لِكُلِ قوم دار فأُجْلِسَ كل واحدٍ منهم حيث يَليق بهِ! وقُوبل هذا بشيء، وهذا بضده! أمَا قدم رَكْبٌ المدينة فِنزل بعضهم في قصُورها وبساتينها وأماكنها الفاضلة، ونزل قومٌ على قوارع الطريق بين الكلاب! أمَا قَدِمَ اثنانٌ من بطنِ الأُمِ الواحدة، فصار هذا إلى المُلْكِ، وهذا إلى الأسْرِ والعناء!.

وقولك: «سلِّ الأرضَ عنهما»، أمَا إنَّا قدْ سألناها، فأخْبَرتنا: أنَّها قد ضَمَّتْ أجسادهم وجثثهم وأوصالهم؛ لا كُفرهم وإيِمَانهم، ولا أنسابهم وأحسابهم، ولا حِلْمهم وسَفَههم، ولا طاعتهم ومعصيتهم، ولا يقينهم

وشَكِّهم، ولا توحيدهم وشركهم، ولا جَوْرِهم وعدلهم، ولا عِلمهم وجهلهم، فأخبرتنا عن هذه الجثث البالية والأبدان المتلاشية، والأوصال المتمزقة، وقالت: «هذا خبر ما عندي»، وأمَّا خبر تلك الأرواح، وما صارت إليه: فسَلُوا عنها كُتُب رب العالمين، ورُسُلِه الصادقين، وخلفاءهم الوارثين. سَلُوا القرآنَ فعنده الخبر اليقين، وسَلُوا من جاء به فهو بذلك أعرفُ العارفين، وسَلُوا العلم والإيمان فهُمَا الشاهدان المقْبولان، وسَلُوا العُقُول والفِطَر فعندها حقيقة الخبر: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الجاثية: ٢١)، تعالى الله - أحكم الحاكمين - عنْ هذا الظنّ والحُسْبَان الذي لا يليق إلا بأجْهَلِ الجاهلين.

الحادي السادس: حادي الحياة الدائمة

الحياةُ الدائمةُ الباقيةُ بعد طيِّ هذا العالم وذهاب الدنيا وأهلها في دار الحيوان؛ هي الحياة التي شَمَّرَ إليها المُشَمِّرُون، وسابَق إليها المُتسابقون، ونافَسَ فيها المُتنافِسُون، وهي التي أجْرَيْنَا الكلام إليها، ونادَت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها، وهي التي يقول من فاته الاستعداد لها: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ (الفجر: ٢١-٢٦) وهي التي قال الله - عز وجل - فيها: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

والحياة المُتقدمة كالنَوْم بالنِّسْبَةِ إليها، وكُل ما تقدم

من وصف السَيْرِ ومنازله وأحوال السائرين، وعبوديتهم الظاهرة والباطنة؛ فوسيلةٌ إلىَ هذه الحياة، وإنَّما الحياة الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: « ما الدُنيا في الآخرة إلاَّ كمَا يُدْخِلُ أحدكم إصْبَعه في اليمِّ فلينظُر بِمَ ترجع ؟»[١]، وكما قيل: تنَفست الآخرة فكانت الدنيا نفساً من أنفاسها، فأصاب أهل السعادة نفس نعيمها، فهُم على هذا النفس يعملون، وأصاب أهل الشقاوة نفس عذابها فهم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياة طيبة، فما الظنُّ بحياتهم في البرزخ، وقد تَخَلَصُوا مِنْ سِجْنِ الدُنيا وضِيقها؟ فما الظن بحياتهم في دار النَّعيم المُقيم الذي لا يزول، وهم يرون وجه ربهم - تبارك وتعالى - بُكرةً وعَشِياً ويسمعون خطابه؟.

---

(١) صحيح ابن حبان رقم (٤٣٣٠) ١٠/ ١٧٣، وسنن الترمذي رقم (٢٣٢٣) ٤/ ٥٦١، ومسند الإمام أحمد.

فإنْ قُلتَ: «ما سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة التي لا خطر لها، وما الذي زهدها فيها؟ وما سبب رغبتها في الحياة الفانية المضمحلة التي هي كالخيال والمنام؟ أفسادٌ في تصورها وشعورها؟ أم تكذيب بتلك الحياة؟ أم لآفة في العقل وعمى هناك؟ أم إيثار للحاضر المشهود بالعيان على الغائب المعلوم بالإيمان؟»، قيل: «بلْ ذلك لمَجْمُوع أمور مركبة من ذلك كله».

الحادي السابع: حادي يوم المَزِيد

قال ابن القيم: يومُ المَزيد هو يوم النَّظَر إلى وجْهِ الربِّ - جل جلاله -، وسماع كلامه منه بلا واسطة، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «بينَا أهل الجنة في نعيمهم، إذْ سطَع لهم نُورٌ، فرفعوا رؤوسهم؛ فإذا الرب - تعالى - قدْ أشرفَ عليهم مِنْ فوقهم، وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم - ثُمَّ قرأ قولُه تعالىَ: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ (يس: ٥٨) - ثم يَتَوارىَ عنهم، وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم»[١]. فإذا انْضَمَّ هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله؛ فهناك يسير القلبُ إلىَ ربهِ أسرعُ من سير الرياح في مَهابِّها، فلا يلتفت في طريقه يميناً ولا شِمَالاً.

هذا وفوق ذلك شاهدٌ آخر تضْمَحِلُ فيه هذه

---

(١) سنن ابن ماجة رقم (١٨٤) ١/ ٦٥.

الشواهد، ويغيب به العبد عنها كلها؛ وهو شاهد جلال الرب - تعالى - وجماله وكماله، وعزه وسلطانه، وقيوميته وعلوه فوق عرشه، وتَكَلُّمِهِ بِكُتُبِهِ وكلمات تكوينه، وخطابه لملائكته وأنبيائه، فإذا شاهده شاهَدَ بقلبهِ قيوماً قاهراً فوق عباده، مُسْتَوِياً علىَ عرشِهِ، مُنفرِداً بتدبير مملكته، آمِراً ناهِياً، مُرسلاً رُسله، ومُنَزلاً كُتبه، يرضىَ ويغضبُ، ويثيب ويعاقب، ويُعطي ويمنع، ويُعز ويُذل، ويحب ويبغض، ويرحم إذا استُرحم، ويغفر إذا استُغفر، ويُعطِي إذا سُئل، ويُجيب إذا دُعي، ويقيل إذا استُقيل، أكبرُ من كلِ شيءٍ، وأعظمُ من كل شيء، وأعزُ من كل شيء، وأقدرُ من كل شيء، وأعلمُ من كل شيء، وأحكمُ من كل شيء، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تَفَنُنِ الحاجات، فلا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرَمُ بإلحاح المُلِحين، سواءٌ عنده من أسَرَّ القول ومن جَهَرَ بهِ، فالسِّرُ عنده

علانيةً، والغيبُ عنده شهادةً، يرى دبيبَ النملةِ السوداء، علىَ الصخرةِ الصماء، في الليلةِ الظَلْماء، ويرى نِياطَ عرُوقها، ومجاري القُوت في أعضائها، يضع السماوات علىَ إصْبَعٍ مِنْ أصابع يده، والأرض علىَ إصبعٍ، والجبالُ على إصبعٍ، والشجرُ على إصبعٍ، والماء على إصبع، ويقبض سماواته بإحدى يديه، والأرضين باليد الأخرى، فالسماوات السبع في كَفِهِ كَخَرْدَلَةٍ في كفِّ العبد، ولو أنَّ الخلقَ كلهم من أوِلهم إلى آخرهم قامُوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله - عز وجل -، ولو كَشَفَ الحجاب عن وجهه لأحْرَقَتْ سَبَحَاتِه ما انتهى إليه بصره من خلقهِ.

فإذا قامَ بقلبِ العبد هذا الشاهد اضْمَحلت فيه الشواهد المتقدمة من غير أن تُعْدَم؛ بَلْ تصيرُ الغلبةُ والقهر لِهذا الشاهد، وتَنْدَرجُ فيه الشواهد كلها، ومَنْ هذا شاهده فَلَهُ سُلوكٌ وسَيْرٌ خاصٌ ليس لغيرهِ مِمَّنْ هو عن

هذا في غفلةٍ أو معرفةٍ مُجْمَلَةٍ.

فصاحبُ هذا الشاهد سائِرٌ إلى الله في يقظَتِهِ ومَنَامِهِ، وحركتِهِ وسْكُونِهِ، وفِطرِهِ وصِيامِهِ، لهُ شأنٌ وللناس شأن، هو في وادٍ والناس في وادٍ.

خليليَّ، لا والله، ما أنا مِنْكما
إذا علمٌ من آل ليلى بدا ليا

والمقصود: أنَّ العِيان والكشف والمشاهدة في هذه الدار؛ إنَّما تقعُ على الشواهد والأمثلة العلمية، وهو المثل الأعلى الذي ذَكَره - سبحانه - في ثلاثةِ مَوَاضِع من كتابه: في سورة النحل، وسورة الروم، وسورة الشورى، وهو ما يقوم بقلوب عابديه ومُحبيه، والمُنيبين إليه من هذا الشاهد، وهو الباعِث لهم على العبادة والمحبة، والخشية والإنابة، وتفاوُتهم فيه لا ينحصر طرفاه، فكُلٍ منهم له مقام معلوم لا يتعداه،

أوليائك، وأدْخِلني بها في شفاعته يوم لاَ شفيع إلاَّ بإذْنِكَ، وسَلِمْ تسليماً كثيراً، والحمدُ لله أولاً وآخراً.

وصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين .

وكتبه

خليل بن إبراهيم أمين

المملكة العربية السعودية

ص . ب ٣٨٠٩٨٠ الرياض ١١٣٤٥

E . M : KAAA5@Hotmail.com

الفهرس